امرأة عارية

امرأة عارية

قصص قصيرة
شريف محيي الدين
الطبعة الأولى : ٢٠١٩
رقم الإيداع : ٢١٨١٤ / ٢٠١٩
ISBN 978-977-6739-05-5
١٤٠ ص ، ٢٠ سم
الناشر: الحسناء للنشر والتوزيع
{جميع الحقوق محفوظة ©}
التوزيع لجميع أنحاء العالم

إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية
ج ٠ م ٠ ع

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار
غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

امرأة عارية

قصص قصيرة

شريف محيي الدين

إضافة
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الذين لم يرحلوا..

ولن!

مكان في الجنة

يسألني صاحبي في جدية مبالغ فيها: هل الغاية تبرر الوسيلة؟
قلت له: في الحقيقة هي تبرر فقط سوء أفعالك لنفسك.
نظر صاحبي إليَّ شزرًا ثم قال: مَن أنت حتى تطلق الأحكام والآراء؟!
إنك مجرد شخص ساذج، وحتمًا ستتجرع مرارة الندم حين تدرك أنني صرت قاب قوسين أو أدنى من امتلاك كل مفاتيح الحياة.
قلت له في هدوء: سألتني فأجبتك، فلماذا أغضبتك كلماتي؟!
أم أنك تريد مني فتوى شرعية تبيح لك كل أفعالك؟!!
يا عزيزي هل ملكت الدنيا والآن تبحث عن مكان في الجنة؟

❊ ❊ ❊

قطعة صغيرة من الوطن

طفل هارب من جحيم زوج أمه، تائه بين الأزقة والشوارع.
وطفل يقطن عشة من الصفيح الصدئ، يتوارى في حجر أمه محاولا أن يحتمي من سيل المطر المنهمر، فوق سقف بيتهم المهترئ.
وطفلة صغيرة تشققت قدماها الحافيتان بين سيارات الطريق، تبكي كثيرًا وهي تتسول، اجتمعوا جميعًا تحت سقف الوطن بحثا عن كسرة خبز عفنة، أو بقايا ثمرة فاكهة عطبة، أو حتى قطعة عظم متوارية بين أكوام القمامة.
أتاهم شيخ كبير، ذو لحية بيضاء طويلة، قال لهم: اطلبوا أي شيء وسأمنحه لكم.
سألوه في تعجب: وما المقابل؟!
أجابهم في بساطة شديدة: فقط قطعة.. صغيرة من الوطن.

❊ ❊ ❊

أثواب سبعة

تصبغين شعرك بألوان الطيف السبعة
وتسألينني: هل أنا جميلة؟
أعانقك...
آخذك من تحت ذراعك،
وأراقصك حتى يدنو شعاع الفجر الأول.
ألمح في عينيك دمعة حزينة.
أمسح عنك بعض آلامك.
تسألينني عن اليوم؟!
وأذكر لك أيام الأسبوع السبعة
كما مدارات الكواكب.
كما طواف الكعبة.
تلملمين شعرك...
تعصبين رأسك.
تلطخين وجهك بألوان أخرى.
تأتين بعد العشاء..
أفتش عنك بين الثياب.
يداهمني التعب.
تخبرينني...
سبعة أثواب..هم!!
من يخلعهم عني، كمن ينزع يومًا، عن أسبوع، حتما يدركني.

❊ ❊ ❊

حمراء

كانت الإشارة حمراء، وفي قلب كابوس الزحام، والشمس ساطعة في كبد السماء، لم أستطع أن أفلت من نظراته المريبة.

جعلت أصيح برفيقتي: لا تلتفتي إليه.

هذا الغريب كان يطل علينا من نافذة سيارتي، حاولت عبثًا أن أغلقها إلا أن الزجاج علق في المنتصف تمامًا.

التفتّ إلى رفيقتي أوبخها لنظراتها الحادة إليه.

تملكتني مشاعر وخواطر مضطربة مشوشة.

كان شيخًا طاعنًا في السن دميمًا، أشعث الشعر، رث الثياب، تفوح من ملابسه رائحة عطنة تشبه رائحة روث البهائم.

هتف الرجل فجأة: أيها الغبي متى تفهم..؟

وثب قلبي من ضلوعي، وهو يستطرد قائلاً: ألا تعلم أن كل من حولك يخدعونك؟!

لا أحد ينشد سوى مصلحته، حتى رفيقتك تلك التي تجلس إلى جوارك.

لم أنبس، إلا أنه واصل متسائلا وكأنه يستفسر عن حديث لم أتفوه به:

من هؤلاء الذين اتصلوا بك؟..

❊ ❊ ❊

عمومًا احترس فهذه ليست وسيلة للصلح، إنهم يريدون استغلال مكانتك ومالك، ونفوذك الكبير، وأنت في الحقيقة أضعف من جناح بعوضة.

قالت لي رفيقتي: لعله يهذي.

كانت كلماته تصك أذني والخوف ينهشني وهو يزمجر غضبًا:

كفاك مهانة، ليس من الخلق الحسن أن تصمت، أن تترك حقك يضيع حياءً أو خجلا، واجه الجميع بحقيقة أنفسهم، اشلح عنهم ثوب العفة الكاذب وانزع كل ستائر النفاق والضلال....

أنت لن ينفعك إلا الحق، ومهما طغى الجبناء فلن يسود في النهاية إلا الشجعان.

ثم أشاح بوجهه عني، حتى يخرج منديلا يمسح به عرقه ثم بصق فيه، وقبل أن يلتفت إليّ كانت الإشارة الخضراء قد أعلنت عن فك أسرى فانطلقت بسيارتي هاربًا.

❊ ❊ ❊

التماثيل

جعل البلطجي يعلّم الناس الأمانة وحسن الخلق.
أخذت صاحبة الراية الحمراء تدعوهم للفضيلة والعفة.
جاء صاحب البار على عجل ليؤنب الجميع على إمعانهم في السهر، وإهمالهم لعملهم.
ثمة طفل يلاعب كلبه.
أنصت الطفل إليهم باهتمام، ثم ما لبث أن طفق يتطلع في وجوه الناس، وشرع يسحب كلبه المتشبث بالأرض في قوة وعنف مبالغ فيه، محاولا أن يلوذ بالفرار، حينما اكتشف أنهم جميعًا قد تحولوا إلى تماثيل شمعية.
بيد أنه بُهت لحظة أن تحطمت أوصال كلبه وتناثرت كقطع زجاجية في كل مكان.

❊ ❊ ❊

إبليس

أخي... أنت أخي.

وهو أخي.

فهيهات لي أن أصلح بينكما! وأيكما لا يرى الآخر!! فلتعلما أنني، بينكما لست أبدًا بحاضر.

إبليس بينكما هو الذي قد حضر..

ها هو جالسٌ يلقي بموعظته، وحلو كلامه.

وبعد أن يتناول لحم وليمتكم الفاخرة.

سينتظر كي يشرب كأس دمائكم ريثما تنتهون من طقوس صلاتكم الأخيرة.

❊ ❊ ❊

صديقي

(مهداة إلى صديقي.. الشاعر الكبير محمود عبد الصمد)

يتحدث قليلاً.
لكنه حين يمسك بالقلم، يناطح السحاب ويغزو الشمس والقمر.
صديقي....
يطرق عوالم بعيدة، يلهث دائمًا خلف أحلامه، يغوص كثيرًا بين لوحات بيكاسو وفان جوخ، وتماثيل ليوناردو.
يطارد أبطال كافكا وماركيز، ويصاحب توفيق الحكيم، ويتشاجر كثيرًا، مع ألبير كامي، وماركس...
يهيم مع موتسارت، ويحلق مع بيتهوفن، ويستيقظ مع سيد درويش.
صديقي... يحفظ القرآن والإنجيل والتوراة.
يعانق تمثال الحرية، ويرتقي هرم خوفو.
يطوف دول العالم شرقا وغربًا... أمريكا والهند وروما... باريس ومكة والمغرب.
يكتب شعرًا، أو نثرًا.
يعزف أو يرسم، أو يغني...
عندما أحبّته كل نساء المدينة، جعل يبحث عن أجملهن!!
بيضاء أم سمراء؟! رشيقة أم ممتلئة، متمردة أم مطيعة؟!

صديقي...
يعاشر كل يوم ألف امرأة، ولا زال يجهل أيهن المثلى!!

صديقي..
سألوه يومًا عن الإله!! ولكنه صمت كثيرًا، ولم يُجب!! وعندما ألحوا في سؤاله، أجابهم على مضض: لا زلت أبحث عنه!!
ساروا خلفه...
آلاف من المعجبين والتابعين، فى رحلة غرائبية ولكنها مدهشة.
طالت الرحلة بين الكواكب والنجوم.
الواقع والمستحيل... الروح والجسد... ونفوس تتغير!! لوامة يومًا.... راضية يوما.... ضاحكة.... باكية... حائرة...
صديقي...
يتكاثر حوله المريدون كما الفراش المبثوث فوق الجبال..
كالعهن المنفوش.
يملأون مكتباتهم بكتبه العميقة، ويزينون شوارعهم برسوماته الجميلة... وتصدح إذاعاتهم بأغانيه وألحانه الساحرة.
حتى إنهم وضعوا له تمثالا كبيرًا في كل ميادين شوارعهم..

صديقي...
عندما يقف على مشارف الحقيقة.
عندها فقط، يمضي وحده.

وحين يبحثون عنه، ولا يجدونه بينهم. تتملكهم الحيرة ويعتصرهم الحزن اعتصارًا، يتشتت جمعهم ويتفرق شملهم، يذرعون الأرض ذهابًا وإيابًا... ينادونه من شرفات المنازل، من فوق كباري الطرقات، من الشوارع ومن فوق التلال والقباب والأبراج.

أعلنت كل النساء الحداد، وارتدين السواد.

ذرفن الدمع حتى أضحى أنهارًا، ولم يسمحن لرجل من بعده أن يمس شعرة منهن.

بات الجميع يتسألون في حسرة:

هل يمكن أن يكون قد ضاع منهم إلى الأبد؟!

بعد لأي، جاءتهم امرأة، ما!!

غامضة ما!!

ساحرة ما!!

لا أحد يعرفها، لا أحد رآها من قبل قط.

ولكنها كانت جميلة، وذكية إلى حد الفتنة.

قالت لهم: عندي أنا اليقين.

نظروا اليها في دهشة!

سألوها: أين هو؟

أخبرتهم في هدوء مريب: إنه قد طار شعاعًا.

❊ ❊ ❊

الطائر الجريح

استيقظت وثمة نقرات خفيفة لعصفور ضئيل على حافة الشرفة...

فتحت عيني بعدما داعبها شعاع رقيق ونسمة عذبة، انسابت من بين فتحات النافذة، انتبهت على صياح الأطفال في الشارع حول حافلة المدرسة.

تذكرت الأيام الخوالي، والأصدقاء القدامى.

تنهدت على ضياع السنين والزمن الجميل.

لاحظت العصفور ثانية، ولكنه بدا في هذه المرة وكأن البرودة قد شلته تمامًا فاستسلم لها.

بيدٍ قد امتزجت بالعاطفة والقشعريرة أمسكت به ووضعته أمام المدفأة.

رعشة قوية انتابته لتظهر جرحًا غادرًا قد أصابه.....

توقفت الحياة عندي في انتظار سماع رنة هاتف، أو حتى رسالة قصيرة منها، وهي التي لا تجود سوى بالقليل....

حتى وهي معي كنت أشتاق إليها!

- للأسف لقد وقعت في شباك امرأة لعوب، وأنت قليل الخبرة إلا من بعض العلاقات الساذجة مع بعضهن.

- أنا مندهش من كلماتك... أنا حزين لأنك أعز صديق.... أنا...

_ أنت.... أنت مجرد واحد من ضحاياها.
وحين تأكدت من كلمات صديقي زلزلتني المفاجأة.
الأغرب أنني حين واجهتها لم تنكر أو حتى تتجمل، بل ذكّرتني بكل كلمة دارت بيننا في بدء تعارفنا..
_ أنا أردتك كصديق ولم أكن لك يومًا حبيبة.
- ولكني....!! - ولكنك أحببتني؟!
يا لك من ماكرة.
- رويدك، قليلا، فأنا لم أعِدك يومًا بأي شيء.

ولما اختفت من حياتي لبرهة قصيرة.... شعرت بأن العالم كله مجرد بقعة سوداء لا حياة ولا روح ولا قيمة لأي شيء فيه...
أدركت أن فراقها عني يعني الهلاك..
بحثت عنها في كل مكان..
سألت كل من يعرفها....
أخيرًا وجدتها..... .

حين التقينا كان العناق بيننا حارًا.
فغرت فاها دهشة وقالت لي:
- بعد كل ما عرفته عني، بل بعد ما شاهدته بعينيك!!
– أنا أحبك... لا يهمني كل ما قد مضى... المهم أن نكون معًا... بدونك لا قيمة لحياتي ولا معنى لها.

ونظرت إلي نظرة طويلة عميقة وكأنها تأتي من أغوار سحيقة، ثم همست:

- أنا آسفة.. لا أستطيع.

تراجعت خطوتين إلى الخلف...

قلت في صعوبة:

- لا تقولي إنني لا زلت مجرد صديق!

ولكنها روعتني بقسوة قائلة:

- لا... أنا الآن... أرفض حتى أن تكون صديقًا لي..!

وهمست في لوعة:

- لماذا؟

- أرجوك ارحل.... أمس مضى... واليوم أوشك... وغدًا سيمضي! سيمضي كل شيء، سيستحيل إلى مجرد فكرة، ذكرى يومًا ما ستُمحى ولن يكون لها أي أثر.

كان العصفور يصارع الحياة والموت معًا...

أمسكته في رفق ووضعته على راحة يدي...

حاولت أن أضمد له جرحه العميق.

لبرهة، استكان في يمناي...

فتحت له ضلفتي النافذة، كانت السماء ترتدي ألوان الكون كله..

نظر العصفور إليَ، ثم استدار وأخذ يتطلع إلى شمس الغروب طويلا.

❊ ❊ ❊

كرسي فارغ

مهداه إلى الراحل الشاعر، الكبير/ أحمد مبارك

يا صديقي...

لـم أعـد أرى في شـارعنا العتيـق، في ذلـك المقهى القـديم، سـوى كرسيك الفارغ، ولم أعد أسمع، على البعد، سوى صدى كلماتك، وما بين رمية نرد الطاولة، ودخان سيجارتك، يتلون شعرك، وتسمو روحك.

يا صديقي...

كنت في شارعنا تشيع الضحك، وتنازع وحدك ألمًا.

يعصرك الحزن، وتأخذك الأيام غدرًا.

وابتسامة نبيلة، لا تفارق وجهك أبدًا.

يا صديقي...

إني أراك على البعد..

آتيًا بعد أن فرغت من صلاتك، كي تصلح لصديق بيتا مكسورًا، أو تجبر نحوًا.. تطوح بجريدتك، وترتشف قهوتك، وتنهض كي ترمم بين الأصدقاء وجعًا.

تُعلمُنا دومًا، كيف نحيا، كيف نمضي سويًا.

أن نبصر في الأشواك زهرًا، وفي علقم الكلام عسلا.

تحيل لنا عتمة الأيام ضوءًا، وتضحك بيننا، وتبكي، وحدك ليلا.

ونحن الآن!!

بدونك... كيف نضحك؟!

بدونك.. كيف نمضي؟!

بل كيف نكتب، ونقرأ؟!

يا صديقى... لم أعد أرى على البعد سوى كرسي فارغ، وشارع فارغ، وقلب فارغ.

❊ ❊ ❊

امرأة عارية

وقفت أمامه في صلف وتحدٍ!!
ارتبك قليلا حين رآها تسد الباب، ولا تكاد تسمح له بالدخول..
كانت على وشك الخروج.
تطلع إليها في دهشة!!
الساعة تجاوزت الثانية صباحًا، وهو، أول مرة يراها في هذا الثوب القصير الفاضح، حتى وجهها قد لطخته بمساحيق كثيرة، فبدت كبغيّ محترفة.
دلف إلى الداخل بصعوبة، بعد أن تراجعت إلى الخلف قليلا.
أقعى جالسًا فوق أقرب مقعد....
يومه كان طويلا بين المرضى والأطباء والممرضات، وشكواهم التي لا تنتهي في المشفى الحكومي التي يديرها نهارًا، وعيادته الخاصة، المزدحمة ليلا.
هو مجهد، مضغوط دائمًا.
غابت لبرهة قصيرة، ثم أتاه صوتها من غرفة النوم، في تحدٍ سافر:
- أنا لن أحيا معك يومًا بعد الآن.
تقلصت ملامح وجهه، الذي تفصد بعرق غزير، حتى غمر عدسات نظارته السميكة، فغامت الرؤية من حوله.
سقطت حقيبته من يده، فتدحرجت أشياؤه... سماعتة الطبية، وأوراقه، وبعض قطع من الحلوى والشيكولاتة.

لمح ابنه الصغير، وهو يلقي عليه نظرات خاطفة، قبل أن ينطلق إلى سريره، مذعورًا من صوت أمه الحاد:

- ستطلقني الآن وتغادر البيت....
هذا، إذا كنت تود أن تحفظ لنفسك كرامتها، وإلا سأخلعك.

عيناه تقدحان بالشرر، وأصابعه ترتجف...
أخرج قداحته، وأشعل سيجارة.

من بين سحابة دخان كثيفة، تخيل نفسه، وهو يتطلع في وجوه مرؤسيه في المستشفى، وهم يضمرون في أنفسهم سخرية وضحكًا.
فهم لا يرونه، إلا جادًا، حازمًا، ويعملون له ألف حساب.
بالتأكيد ستنقلب صورته تمامًا وسيتحول إلى أضحوكتهم.

- سأفعل كل ما أريد، وسأتزوج برجل آخر يقدر قيمتي وجمالي، أنا لم أرَ معك إلا الشقاء والعذاب، وكأنني قد سخرت لك، ولأبنائك.

سقطت السيجارة منه بعد أن أحرقت أصابعه....

سنوات طويلة من الكفاح في العمل والحياة، وهو جاد ملتزم، حتى حصل على هذه الفيلا الفاخرة الكائنة في أرقى أحياء مصر، وألحق أبناءه بأغلى المدارس.
وفي الصيف، يسافرون للخارج للتنزه مرتين على الأقل، وتعود هي من هناك محملة بأحدث موديلات الملابس وأغلى العطور، إنه لم يفرغ بعد حتى من قسط سيارتها الفاخرة..

- أنت رجل أناني، بخيل، لا يحب إلا نفسه.

شعر بدقات قلبه تتسارع، تذكر يوم التقى بها في عيادته الخاصة، كانت مثل العصفور الصغير، هادئة، جميلة، لا يكاد يسمع صوتها من فرط رقتها.

- أنا متزوجة من شبح لا أكاد أراه، إلى متى سأظل هكذا وحيدة بائسة؟!
أنا أريد رجلا أشعر به ويشعر بي، أحادثه ويحادثني.... كفاني منك، بدمامتك، وقبح وجهك، وجسدك هذا المترهل كجسد امرأة عجوز.

شعر بالقهر الشديد، وبألم يزداد في صدره، وهي تستطرد بصوتها المزعج ولسانها السليط:

- عيالك لن تراهم إلا مرة واحدة كل شهر، وإذا أثرت أي مشكلة فاعلم أني لن أجعلك تراهم أبدًا .

شعر بإهانة بالغة، لم يصدق أنها هي!
هل حقا هي زوجته؟!
كيف لها أن تحدثه بمثل هذه الطريقة المهينة؟!
وهل السكن، والحب، والمودة، التي بينهما أضحت سرابا؟!
إذا كانت قد نسيت كل ما فعله من أجلها، فماذا عن سنوات العمر التي جمعتهما معا كرفيقين، وشريكين، وأبوين، في رحلة الحياة بكل تقلباتها؟!

- لا تنس أن القانون يعطيني كامرأة، حقوقا لا حصر لها، أما أنت كرجل فعليك أن توفي بكل التزاماتك وإلا فضحتك، وحبستك.

دارت الدنيا به....
وضع يديه على المنضدة الموضوعة أمامه، ومال برأسه للأمام قليلا.

- لقد جمعت لك كل ملابسك ووضعتها في تلك الحقيبة.

ألقت بالحقيبة أمامه في عنف، ثم اقتربت منه، صائحة، وكأنها توشك أن تجهز عليه:

- لماذا لا تتكلم؟

هل أكلت القطة لسانك؟

اقتربت أكثر منه.

كان جالسًا أمام المنضدة، وقد دفن وجهه بين راحتي يديه.

بدأت الريبة تتسرب إلى نفسها، قالت هامسة:

- أنت، هل تبكي؟!

ولكنه لم يتحرك. رفعت يده إلى أعلى، ثم تركتها.....

فإذا بها تسقط، لترتطم بزجاج المنضدة.

تجمدت في مكانها، من فرط الصدمة!!

حينما التفوا حول أبيهم في فزع....

كانوا يبكون ويصرخون، بينما هي واجمة ذاهلة.

❊ ❊ ❊

العجوز

جلس في أحد الكافيهات، ينتظر في حزن صديقه المقرب.
الوقت يمضي ببطء..
أفكاره تتصادم.
قلبه تتسارع نبضاته.
ابنه الوحيد قابع في أحد المشافي، يصارع وحشًا قلّما يفلت من براثنه أحد.
مسح بطرف منديله، دمعة سقطت منه خلسة.
في نفس الوقت من السنة، ولكن منذ سنوات بعيدة، رحلت زوجته وحبيبته، بنفس المرض وتركت له وحيده.
لم تكن لحياته بعدها أي معنى، إلا وجوده من أجل ابنه، الذي لم يعد يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه.
هو يبغض كل ما يكره، ويعشق كل ما يحب، ويلبي له طلبه حتى من قبل أن يطلبه.
وحده، تعب كثيرًا في رعايته، وتربيته.
رفض الزواج ثانية، وفاءً لذكرى حبيبته الراحلة، وخوفا على فلذة كبده، من قسوة زوجة الأب.
أضحى لابنه أبًا، وأمًا، وصديقًا.
لديه أصدقاء وأقارب كثر، حاول التواصل معهم، ولم يجبه أحد.
الكل مشغول لاهٍ.

عاود الاتصال بصديقه الذي تأخر كثيرًا، ولم يأته أي رد.
قبع، منتظرًا إياه.
كان يود، مجرد الحديث.
مجرد تفريغ للواعج نفسه.
هو لا يستطيع الذهاب إلى المشفى في هذا الوقت المتأخر من الليل، كما أنه بات يمقت جدران منزله، الذي فرغ من صوت صياح، وضحكات ابنه. لا شيء لديه سوى الانتظار.
التفت خلفه، ثمة عجوز، طاعنة في السن، ترتدي عباءة شديدة السواد، تمد يديها للسؤال، والجميع ينهرها، حتى صاحب الكافيه أمرها بالانصراف.
تطلع إليها قليلا....
يبدو أنها تذكّره بشخص ما قريب منه.
ولكنه لا يستطيع الآن – تحديدًا – تذكره..
شعر أن ثمة شيئا ما يشده إليها!!
أشار إليها أن تأتي إليه....

- أوامرك؟
- اجلسي.
- أين؟
- هنا معي.
أحضر لها شرابًا وطعامًا.

تطلعت العجوز إليه طويلا، ولم تمد يديها إلى الطعام.
سألته:
- سيدي... ماذا بك؟!
أجابها:
- لا شيء.
_ لا تحبس حزنك بداخلك، تحدث ولا تخف.
أخبرها أنه حزين لمرض ابنه... يائس... فاقد لأي أمل في الشفاء.
وهو الآن يشعر بالوحدة، بالغربة والصقيع الشديد... إنه يتألم، فلا يد تربت عليه، ولا كلمة تواسيه، الكل تخلى عنه.
همست العجوز:
- ما أصعب أن يتألم الإنسان، دون أن يجد أحدًا يشاطره أوجاعه.
قال:
- الكل استاء من أحزاني ونفر مني، ولم يعد أحد يستوعب مقدار ألمي.
_ من قال لك يا سيدي إنك وحدك؟!
نظر إليها في دهشة، ثم قال في ضيق:
_ ولكن للأسف، هذه هي الحقيقة التي أعاني منها.

صاحت العجوز به: لماذا تعتبر أن ما لا تراه غير موجود، غير حقيقي؟! قال، وقد بدأت تنتبه كل حواسه وبعد أن شعر برجفة صغيرة:

- أنا رجل وحيد بائس، الكل قد فر منه، تجنبًا لمشاركته أحزانه وهمومه. قالت العجوز في قوة:

_ أنت لست وحدك، ولم تكن قط وحيدًا.

نهضت العجوز... أخرجت من عمق جلبابها دمية صغيرة، ثم ناولتها له، وقالت:

- أعطها لابنك حين يشفى، واطلب منه أن يعتني بها.

لاحظ الرجل التشابه الشديد، بين ملامح الدمية، وملامح ابنه!!

تجمد الرجل في مكانه قليلا...

وحين التفت ليسأل العجوز عن سر هذا التشابه العجيب، وجد صديقه المقرب وقد جاء معتذرًا لتأخره عليه.

تلفت حوله في وجل.

جعل يبحث عن العجوز في أرجاء المكان، ولكنه لم يجد لها من أثر!!

سأل صديقه عنها.

أجابه في دهشة: أنا لم أر أحدًا – سواك – على هذه المنضدة!!

❊ ❊ ❊

الفراعنة

أتاني شخص ما لا أعرفه!!

سألني:

- أنت.. ما بالك حزينًا؟!

قلت له:

- وهل يوجد شيء لا يدعو إلى الحزن؟!

- كل فرد يحصد ثمار ما زرعه.. ماذا تريدون؟

هل تريدون حياة رغدة جميلة؟!

في مقابل ماذا؟

هل أخذتم بالأسباب.. وتوقفتم عن غيكم وفسادكم في الأرض؟

لا تلوث النهر..... لوثتم.

لا تقتل... قتلتم.

لا تسرق.... سرقتم.

لا تشتهي زوجة جارك..... اشتهيتم.

نظرت إليه في دهشة وأمرته أن يصمت إلا أنه واصل قائلا:

أنتم لا ترون إلا أنفسكم فقط... ولا تواجهون الحقيقة.

صرخت فيه بقوة:

- من أنت يا هذا؟

قل لي من أنت؟ ومن أعطاك الحق حتى تتحدث هكذا؟

نظر إليّ في ألم ثم همس في حسرة:

- أنا هو أنتم كلكم بكل اختلافاتكم بكل خطاياكم بكل أنانيتكم...
بكل كسلكم وإهمالكم ولا مبالاتكم...
بكل ضعفكم وكرهكم وغروركم...
أنا هو أنتم...
ولكنكم لا تروني... لا تبصرونني حقا ولا تعلمون أنني موجود معكم
منذ آلاف السنين...
منذ رمسيس وموسى...
منذ إخناتون ويوسف وإدريس....
باغتتني المفاجأة.
صرخت: جدي العظيم.
نهضت كي أحتضنه بقوة ولكني اكتشفت أني أمسك بلا شيء.
مجرد خيط دخان....
طيف..
أو سراب.

❊ ❊ ❊

هي وهي

هي.... لم تسمح لابنتها قط بأن تطأ بقدميها بلاط المنزل.
تضعها فوق سرير حجرة النوم وتطفئ كل أنوار البيت.
فقط تترك أباجورة صغيرة تشع نورًا خافتا.
فهي تخشي عليها من الميكروبات، التي تحسبها تملأ أرضية المنزل وهي تخشى على عينيها من الإضاءة القوية.
لا تسمح لها برؤية الناس، حتى أقاربها إلا للضرورة القصوى، لعلها بذلك تتقي عيون الناس التي تقصف الحجر.. كما أنها تحجم عن الخروج بها صيفًا حرصًا على بشرتها من أشعة الشمس الحارقة... وهي تخشى أيضًا الخروج بها شتاءً خوفا من زمهرير البرد. تغسل يديها بالصابون عشرات المرات قبل أن تحملها أو تقلبها في سريرها أثناء النوم.
هي... لا تسمح لأبيها بأن يقبلها أو يحملها أو حتى يقترب منها إلا بعد أن يبدل ثيابه كلها ويستحم.
ما فتئت تضربها، حين تتبول أو تتبرز على نفسها وتلعن أباها حين تسقط الطعام بالخطأ على ملابسها.
دائمًا هي معاقبة مذمومة لأي خطأ بسيط قد يصدر عنها.
تدخّل أبوها كثيرًا في محاولات مضنية لإصلاح الحال وإنقاذ ابنته من براثنها.. اتهمته بالفوضى والغباء، حمّلته ما لا طاقة له به، حاصرته بالمشاكل والديون ولم تتركه حتى خرج يومًا ولم يعد.
ولما غاب اتهمتها بأنها سبب هروب أبيها منها.
بعد فترة علمت أنه تزوج من غيرها وهاجر إلى خارج البلاد.

بعد مضي سنوات عديدة... وبعد أن دارت عجلة الزمان... وبعد أن تبدلت الأدوار.

هي... وضعت أمها العجوز في حجرة المطبخ بعد أن خصصت لها مرتبة قديمة وملاءة متهالكة.

منعتها من استخدام حمامهم الخاص وسمحت لها فقط باستخدام دورة المياه الخاصة بخدم المنزل.

منعت عنها أولادها خوفا عليهم من العدوى أو التلوث، لا تطعمها سوى وجبة واحدة في نهاية اليوم من بواقي وفضلات طعامهم تضعها في آنية بلاستيكية سرعان ما تتخلص منها..

لا تسمح لها بالخروج من باب المطبخ، ولا تسمح لأي شخص بزيارتها بحجة أنها مريضة وتحتاج للراحة.

حينما تدخّل زوجها الذي أفزعه معاملتها لأمها.

نهرته بشدة... وبّخته وأعلمته أنها مسائل عائلية خاصة جدًا.

وأنه لا ينبغي له أن يتدخل فيما لا يعنيه.

عندما أشرق الصباح لم تجده نائمًا إلى جوارها..

هرعت إلى أولادها ولكنها لم تجد أحدًا منهم في حجرته...

أصابتها حالة هياج شديدة.

جعلت تهيم في الشوارع لتبحث عنهم، ولكنها لم تجد لهم أي أثر.

عادت إلى بيتها.

هرعت إلى المطبخ، وعيناها تقدحان بالشرر.

❊ ❊ ❊

الفئران

الهرة الشرسة، أكلت طعام الكلب..!!

الكلب كان نائمًا في غفوة من غفواته أو لعله أغشي عليه، لفرط ما تجرع من خمر ليلا هو واللبؤة العجوز.

أعلن سكان المستعمرة حزنهم لما حدث، وجعلوا يذيعون في كل القنوات الفضائية تعازيهم للكلب واستياءهم مما فعلت القطة الشرهة.

توقف كبير الفيلة الأعمى عن عمله في ضبط الأمن الداخلي، وحراسة تخوم المستعمرة، غادر مكانه بعد أن أصدر تعليماته بالانسحاب لجميع أبنائه، وإخوانه، وكل قطيع الفيلة، وأعلن العصيان العام والاحتجاج على القطة الشرسة، والكلب العربيد، وصديقته اللبؤة العجوز.

سكان المستعمرة تواروا في بيوتهم جزعًا.

خافوا من اللبؤة،

والفيل،

والكلب،

والقط،

بل وخافوا من أنفسهم!!

ولكن حين غشيتهم فلول الجراد، فكادت تقضي على الأخضر واليابس، فزعوا، وتساءلوا فيما بينهم..

كيف يمكنهم أن يرغموا الفيل على متابعة وظيفته؟!
لا مفر إذن من اللجوء إلى أنثى الأسد.
وهنا قال حكماء المستعمرة: صحيح هي عجوز طاعنة في السن، إلا أنها من أصل عريق، ولا بد أن ينتصر الحق في داخلها على الباطل، فهي في النهاية ملكة سليلة ملوك.
وحين ذهبوا إلى قصر اللبؤة، وجدوا أن القطة الشرسة قد حلت محلها، وأن اللبؤة تقوم برحلة علاجية، خارج المستعمرة....
علموا أنها تقوم بعملية تجميل كبرى ستعيد إليها جزءًا كبيرًا من شبابها وحيويتها.
اجتمعوا على عجل، ثم قرروا الاستعانة بالكلب.
خافوا من سوء طباعه، إلا أنهم أشاعوا فيما بينهم أنه لن يخذلهم، وحتمًا سيرتد لطبعه ككلب وفي.
ولكن الكلب طلب منهم مساعدته في القبض على القطة، التي أكلت طعامه، وجعل يخوض كثيرًا في ماهية هذا الفعل الإجرامي، ودلالته الخطيرة، وما يمثله ليس له وحده فقط من إهانة بالغة، وإنما هو فعل شاذ يسيء لجميع سكان المستعمرة، ويقلب كل المعايير ويخل بموازين القوى، حتى أن الكلب لم يعد يفكر إلا في كيفية يردع بها هذه القطة المارقة، ويسترد كرامة المستعمرة الضائعة، ويعيد للكلاب هيبتهم، وفي النهاية دعاهم جميعًا لحضور فعاليات مؤتمر كبير تم إعداده لشرح وتوعية الشعب عن مخاطر القط والإسهاب في صفاته وطباعه التي لا تخلو من مكر وغدر.

سكان المستعمرة أصابهم الهلع، فهم لا قِبَل لهم جميعًا بهذه القطة الشرسة.

الجراد سيطر على كل الأنحاء...

الفوضى سادت وعم الخراب.

ألقى الحزن بظلاله، وتحسر الحكماء على الأيام الخوالي!!

سكان المستعمرة، أصيبوا بالهياج الشديد، وصاروا يتعاركون ويقتلون بعضهم البعض لأتفه الأسباب.

إلا أنهم – وبعد لأي – قرروا الذهاب إلى الفيل ومحاولة إقناعه بالعودة إلى عمله.

قال حكماء المستعمرة: صحيح أن الفيل أعمى، ولكنه في النهاية قوي مهيب، وهو بحجمه الضخم وصوته العالي له الحق أن يكون قائدًا أو زعيمًا كبيرًا، شريطة أن يعود إلى عمله ويحفظ لهم الأمن والأمان.

الفيل قابلهم مقابلة حسنة.

فرح بعرضهم هذا، إلا أنه طلب منهم شيئا واحدًا، وهو طرد كل الفئران من المستعمرة.

التفت سكان المستعمرة إلى بعضهم البعض في ذهول...!!

وجعلوا يتساءلون في دهشة:

كيف لا يعلم هذا الفيل الأعمى أنهم جميعًا فئران؟!

❊ ❊ ❊

المتوحشة

يباغتني رفيق دربي قائلا: صفها لي!!
وتأخذني الذكريات، ويلفني شجن عميق... يرسمني رسمًا جديدًا.
يطوّح بي لونًا غريبًا في الفضاء، يجعلني ضوءًا ونورًا.
أو بحرًا غريقًا.... بلا قرار...
بلا شطان، وتبعثرني حيرتي لبرهة، ويتملكني شرود طويل، ثم أهمس: جميلة هي!! شأنها شأن الحياة، تأتي وتمضي خاطفة...
تظهر بين البدايات المتعثرة، وتكمن في قلب النهايات المفاجئة.
تأخذني بين ذراعيها كريح عاصفة، وتهرني دومًا بأنوارها ساطعة.
هي صدفة، ولكنها عميقة عمق الزمن.
خرجت ذات يوم، بعطرها الساحر، وقد كشفت عن كل مفاتنها!!
بشرتها وردية مشربة بحمرة، ممشوقة القد، شعرها غجري، يتطاير خلفها وكأنه شلال موج هادر.
عيناها بحر عميق لا قرار له.
التفّ حولها جميع الرجال، وسار خلفها كل أطفال البلدة.
حتى النساء وقفن في ذهول يرمقنها في ريبة سرعان ما تحولت إلى غيرة وحسرة مميتة.
كن يتطلعن إلى ردائها الحريري، وقد التصق بجسدها الفائر، فشف عن صدر ناري ناهد وساقين مرمريين مخروطين بمهارة مدهشة.

حـاولن اكتشـاف أي عيـب، أو نقيصـة بهـا، ولكـن عبثـا، فهي امـرأة تتفجر بجمال أنثوي صارخ.
صاحت بعد أن وقفت فوق ربوة عالية:
هل ثمة أحد منكم ينشد مطارحتي الغرام؟!
بوغت جميع الرجال، لبثوا يهمهمون في ذهول!!!
بينما ألجمت ألسن النساء، حتى أن بعضهن خرت مغشيًا عليها.

كررت سؤالها المدهش:
ألا يوجد بينكم رجل يريد أن يتذوق عسل شفتيّ؟
تعالت الهمهمات بين الرجال.
زمجر بعضهم غاضبًا.
تعالت ضحكات الأطفال.
هرعـت كل امـرأة إلى رفيقهـا، التفّـت بكل حناياهـا حولـه، تشـبثت بقوة بجسده. كررت سؤالها بصوت يمتلئ بالرغبة:
ألا يوجد بينكم من ينشد قضم تفاحتيّ الناضجتين؟
وينهل من شهد أنوثتي الفائرة؟
ارتبك الرجال، اضطربوا اضطرابًا شديدًا من فرط جرأتها، التفتوا إلى بعضهم البعض.
تجمعوا في حلقة واحدة بعد أن تخلصوا من قبضة نسائهم.
دارت بينهم مناقشات كثيرة.

احتدم الجدال، حاولوا أن يتفقوا، أن يختاروا واحدًا منهم يليق بمثل تلك الأنثى، سيطر الوجوم على جميع نساء البلدة.
عادت تسألهم بصوت يمتلئ بالجبروت والسخرية:
ألا يوجد بينكم من يستطيع أن يجعلني ارتجف من فرط اللذة؟
ألا يوجد بينكم رجل بحق يجعلني أشعر أني امرأة؟
شعر الجميع بمرارة الإهانة.
حتى نساء البلدة أنفسهن تمنين أن يخرج لها من يفتك بها، رجل بحق، يفترسها، ويجعلها تذوب منتشية بين ذراعيه، بل تطور الأمر بغرابة شديدة، أن اندفعت كل واحدة منهن إلى رفيقها، تحثه أن يكون هو البطل المنشود، ولكن عبثًا أن يتحرك للرجال ساكن.
فهم لا زالوا في جدالهم وخلافهم يتناحرون، ولا زالت هي تكرر سؤالها، بلا مجيب.

❊ ❊ ❊

ليلي

وستبقى حائرًا، شريدًا تراودك ليلى، بعد ألف ليلة..
تتدلل وتضحك...
وستظل هي كما هي، ليلى ستلاعبك الحِجلة فوق الطاولة.
وترمي النرد عنك، علك تفوز بالعشرة.
وستمضي بين نارونور، وما بينهما من عثرة.
وستأتيك عجوز، ولكنها حبلى!!
ستطرح عنك كل أسئلتك.
وستهم بك حتى تخلع عنك كل ثياب العفة.
فاثبت.
يا ابن عنترة يا ابن بيبرس، وحمزة.
دع عنك زبد البحر، دع عنك الموج الأزرق في عينيها.
والتيه ليلا في نهديها.
أنت هنا وهناك، وما بينهما عتمة.
اشحذ سيفك وأشهر قلمك ولا تخلع عنك نعليك، فلا أنت موسى، ولا أنت في وادي طوى.
اثبت.
ودع الطير يحلق فوق رأسك.
انزع عنك أطياف الخوف.
حطم جدران الوهم، وودع الصديق.... والحبيب، وليلى.

أنت هنا، أم هناك؟!
أنت يقين حائر بيننا فأمسك.
اقبض راحتيك، وأمسك.
علك تفلح.
علك تبحر، وتنجو.

❊ ❊ ❊

القرين

ألمحه صدفة في المرايا!!

ثمة أوجه، تتشابه كثيرًا.

أما الروح، فتكاد تكون متطابقة.

تحين مني بعض الالتفاتات، بعض الإيماءات، بعض العبارات.

تارة ساخرة وتارة أخرى تفيض حكمة، تمتلئ بالرحمة.

أباغت بالصدمة، وأشعر وكأنه هو الذي يفعل.. فهذه لفتاته، وتلك كلماته، وذلك هو عين أسلوبه.

أسير في طريق التطابق بسرعة مذهلة!!

هل تلبستني روحه؟!

أم أنني، هو؟!

جل ما كنت أنتقده فيه – صبيًا – أفعله اليوم وكأنني مدفوعٌ بيد خفية!!

وأفاجئ نفسي كثيرًا برؤية للناس والعالم تتطابق مع رؤيته، التي كنت وقتها لا أفهمها، ولا أدرك مدى حنكتها، فقط كنت أعارضه، وأشاكسه، إلى حد الصدام، حتى التشاجر بيننا كان عنيفًا لا هوادة فيه، ربما نالني منه ركلة عنيفة، أوصفعة مدوية.

لم نتفق أبدًا، أو نلتقي معًا، عند نقطة واحدة مشتركة.

تصادمت أفكارنا، وراحت كل واحدة تلعن الأخرى، تسبها وتهينها، وتلعن زمانها.

ذلك الزمن الذي يخدعنا دومًا..

يستدرجنا... يوقعنا بحيله الأخطبوطية، ويحاصرنا بدواماته المتتالية.

وحين تملؤني الغربة، وتصفعني أيامي بمراراتها، يشتد بي الحنين إليه، ويأخذني في مداراته اللانهائية، أنهض، أهرع إلى المرآة.

أبحث عن وجهه، وأبكي قليلا، قبل أن يمد يده إليّ ويأخذني إلى عمق روحه.

أسأله المعونة، والنصح، أطلب منه أن يصلح لي ظهري، الذي كاد ينكسر... أحادث نفسي، وأبتسم، ويرقص قلبي فرحًا، عندما أسمع حشرجة صوته. وتطفر الدموع من عيني، حين تطالعني تقطيبة ملامحة، وهو ينفث دخان سجائري.

❊ ❊ ❊

الناظر نور

أخبرتني الطبيبة غادة ابنة أخي الكبير الناظر نور، أنه لا داعي لبقاء والدها في المستشفى.

- ولكنه لا زال يعاني!
- أمراض الشيخوخة ليس لها علاج، ويمكن متابعة حالته، وتناول بعض العقاقير والحقن الكيماوية في البيت.

قرر الضابط كمال، شقيق غادة أن يخرجه إلى بيته، وأن يوقف نزيف المال المتدفق على أسرّة ذلك المشفى الاستثماري.

بعد عدة أسابيع تدهورت حالة نور الصحية..

استدعت الطبيبة غادة طبيبًا متخصصًا في علاج الأورام، وقبل أن ينصرف انتحى بها جانبًا لبرهة، عادت بعدها حزينة منكسة الرأس.

سألها كمال:

- ماذا قال لك؟
- الحالة متأخرة جدًا والدواء صار ضرره أكثر من نفعه.

تراجع كمال خطوة إلى الخلف، تهاوى على مقعده، أردفت غادة:

- لا بد أن نخبر أبانا بأنها أيامه الأخيرة... عله يستعد نفسيًا.. وينهي كل معلقاته بالدنيا، وربما يوصي بفعل أو بشيء فهذا حقه الأخير علينا.

- ولكني لا أستطيع مواجهته بهذه الحقيقة المفجعة، لنتركه يحيا أيامه الأخيرة في سلام، لا أن نعذبه بانتظار الموت.
- ولكنك هكذا تخدعه، تعطيه وهمًا زائفًا.
- الأقسى من الموت نفسه هو انتظاره، توقع حدوثه بعد لحظة أو دقيقة أو برهة قصيرة، هذا شيء فظيع، كما أنه ربما تحدث معجزة لأبينا ويشفى.
- أنت هكذا لا تخدع أبانا فقط، بل تخدع نفسك أيضًا، كيف تكون ضابطًا بالقوات المسلحة المصرية وتفكر بهذه الطريقة؟!
- الحياة العسكرية تمنح صاحبها الصبر، والتعامل بحكمة مع كل التحديات، بل ومواجهة الموت نفسه عشرات المرات، قد تُعلّمنا تحمل الألم ولكنها لا تعلمنا القسوة، وكوني عسكريًا لا ينفي أني إنسان لديه أحاسيس ومشاعر الابن تجاه والده..... إذا كنت مصرّة على إعلامه بأنه سيموت، إذن أخبريه أنت...

البنت سر أبيها، كما أنك طبيبة وهذه طبيعة عملك!!

صمتت غادة لبرهة، ثم همست في أسى:

- إذا كنت أنت لا تستطيع إخباره... فأنا كذلك أيضًا.

فجأة وجدت نفسي في موقف حرج، بل هو أصعب موقف يمكن أن يتعرض له شخص في حياته!!

أن تخبر أخاك أنه أوشك على الموت، بل إنه بالفعل يموت.
عند مدخل باب حجرته تسمرت في مكاني، وعندما التقت عيناي بعينيه أدركت أنني أحمل ما لا يطيقه بشر، نظرت إليه طويلا وقد صار جلدًا على عظم، ملامحه شاهت، وشعره الغزير جله سقط..
لقد كنا نحسده على وسامته وجسده الرياضي الذي ظل ممشوقًا حتى العام المنصرم.
أشار إليّ فاقتربت منه، احتضنني وربت على كتفي، وقال لي:

أنت أخي وصديقي وأقرب الناس إلى قلبي، فلماذا لم أرك منذ فترة طويلة؟
تعجبت من كلماته، فأنا لم أتركه يومًا واحدًا منذ مرضه، متخليًا عن متابعة أعمالي وتجارتي، حتى أبقى بجانبه، ولكني أدركت أنه حتمًا قد فقد الكثير من ذاكرته.
أخبرني أنه راض عن كل ما فعله بحياته، وكيف ربّى وعلّم ابنه وابنته وزوّجهما، وهما الآن في أحسن المراكز، وكيف كافح طيلة حياته العملية كمدرس تابع لوزارة التربية والتعليم، حتى أصبح ناظرًا لواحدة من أفضل مدارس الثانوية في مصر، وعلى الرغم من كل المشاكل والمصاعب التي واجهته، فقد عاش حياته بدون أن يظلم أحدًا، أخذت الدنيا منه أشياء كثيرة ووهبته أيضًا أشياء أخرى. قلت له: لماذا تذكر لي كل هذا الآن؟
ولم يجبني سوى بابتسامة كبيرة، ثم واصل سرد ذكرياته...

سنوات العمل... مدرسته.. الزملاء... الأصدقاء... الأقارب...
ذكرهم جميعًا دون أن يُغفل واحدًا منهم، وعندما تعب من الحديث، انصرفت دون أن أخبره بشيء، ولم يسألني ابنه الضابط كمال أو حتى ابنته الطبيبة غادة، عما قلته، بل تركاني أغادر دون حتى أن يودعني أيٌ منهما.
وفي اليوم التالي ذهبت لزيارته، كان مشغولا بكل من حوله من أبناء وأحفاد وأقارب وأصدقاء، بل والعديد من الذين تعلموا تحت يديه..
الطبيب والمهندس والمحامي وأستاذ الجامعة.
كان سعيدًا فرحًا، حتى أنني وجدته وقد وضع مفكرة صغيرة أسفل وسادته، كان يسجل بها اسم كل شخص قد عاده في مرضه، مفتخرًا بكل هذا العدد من محبيه وطلبته.
سألني عن حالي فقلت له: تجارتي ناجحة ورصيدي صار كبيرًا في البنك. عبس في وجهي ثم قال: أين زوجتك.. أين أولادك؟
نظرت إليه في دهشة، فهو يعلم جيدًا أنني أرى أن صناعة المال أهم من صناعة أسرة، وأن المال هو الذي يستطيع صنع أسرة سعيدة وبدونه فلن يتحقق أي شيء. ومضت سنوات العمر في صراع العمل والتجارة وجمع المال، حتى نسيت!
نسيت فكرة الزواج والأبناء وتكوين أسرة.
شعرت ببرودة شديدة، سألت نور:
ألا تخشى الموت؟!

التفت نور إلي ولم ينبس سوى بجملة قصيرة:

في الموت حياة!!....

وفي الحياة أيضًا موت!

مضت عدة أيام وأنا على حالي هذا، في كل مرة أذهب عازمًا على إخباره، وفي كل مرة أيضًا، أحجِم.

حتى عقدت العزم يومًا على أنني في الغد لا بد أن أخبره.

وحينما جاء الغد... لم أستطع أيضًا أن أخبره!

الناظر نور مات...

مات وهو نائم في سريره، والابتسامة ملء شفتيه.

العجيب في الأمر أنني لم أشعر بأي ذنب، كونى لم أخبره بأنها أيامه الأخيرة،

بل إنني كنت قد اتخذت قرارًا مصيريًا سيغير حياتي كلها رأسًا على عقب. بعدها شعرت براحة كبيرة، حتى أن ابتسامتي كانت مبعث دهشة الضابط كمال والطبيبة غادة وكل الحضور في مراسم دفن أخي الأكبر الناظر نور.

❊ ❊ ❊

فرصة أخرى

توقفت الروح في تؤدة، كانت تطلع إلى الجسد.....
ربما تكون تلك هي نظرتها الأخيرة له، لعلها لأول مرة تشعر بالتحرر الكامل، ولكنها في الآن ذاته، كانت تحس ببعض اللوعة وربما الحزن أو الشجن العميق، فليس بشيء قط يمكنه الآن أن يمنعها من السمو والتحليق، ولكنه ألم الفراق والبعد عن أليفها الخاص.
تحرك الجسد المسجّى في ثوبه الأبيض، وأشار لها أن تمضي إلى حال سبيلها، ولا داعي لإضاعة الوقت في عبث تلك المشاعر، التي لا يقيم لها حسابًا أو تقديرًا.
تدخلت النفس، بغتة حاولت أن تمسك بتلابيب الروح، التي جعلت تقاومها برفق خشية أن تحدث بها جرحًا لا يندمل أبدًا.
اقتحمت الشخصية المكان عنوة، صاحت بالروح:
- رحيلك يعني اختفاء النفس.
همس الجسد:
- منذ متى وأنت تهتمين بأمر النفس؟
بادرته الشخصية في عصبيتها المعهودة:
- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك كعهدنا بك دائمًا لا تحبين أحدًا سواك، ومبعث خوفك الآن ليس حرصًا على النفس، وإنما حرصًا على وجودك، وما أنت في الحقيقة سوى ناتج تفاعل النفس معي.

- حتى لو كان ما قلته صحيحًا، ألا يحق لي الدفاع عن وجودي؟ ثم إن النفس ما هي إلا الأثر الناتج عن العقل.

وهنا بادرهم العقل محذرًا:

- ما يدور بينكم الآن من مشاحنات لن يعود على الجميع سوى بالخسارة، لقد تعبت كثيرًا من تلك الصراعات، التي ما انفكت لا تفارقكم قط، حتى في هذه اللحظة العصيبة لا زلتم تتناحرون! يا لكم من حمقى.

إلا أن الروح احتدت عليه قائلة:

- أنا التي أبعث الحياة في الجسد، بينما أنت أيها العقل فقط تنتج النفس، فأنت بدوني تصبح ميتا لا حياة فيك، أي أنك تحديدًا مدين لي بالوجود، ولا يصح أن تتحدث في وجودي هكذا.

تململ العقل ثم قال في لوعة:

- يا أيتها الروح.. هل نسيت كيف أتعبتني النفس كثيرًا؟ فهي لم تكن يومًا راضية أو مطمئنة، بل لوّامة وربما حينا آخر جاحدة.

عـادت الـروح حينمـا اشـتد علىهـا ألـم الفـراق، وأدركـت أن رحيلهـا سيعود بالخراب على الجميع، لبثت تمامًا في الجسد.
ولكنها عادت، وهي تتحين فرصة أخرى، ربما تكون أفضل.

❊ ❊ ❊

العباءة السوداء

في اجتماع لزعماء العالم، أعلن كبيرهم عن حاجته الشديدة للمزيد من العلماء والفنانين والأدباء ورجال الدين.

كان زعيم الشرق غاضبًا، صاح بهم في قوة:

- ألا يكفيكم ما فعلتموه بمنطقتي؟!

أعتقد أنه قد حان الوقت لتوقف جميع تدخلاتكم وسحب كل أذرعكم من أرضي.

غضب كبير الزعماء وأعلن أنه لا يصح أن يعلو صوت أحدهم في حضوره، التفت زعيم الشمال إلى الكبير محاولا تهدئته:

- عذرًا كبيرنا يحق لك أن تستاء، ولكن لا تنس أن خسائر منطقته بالفعل هي كبيرة.

ولكن زعيم الجنوب رمقه بحدة، ثم ذكّره بأن زعيم الشرق لا زال أغناهم، قال زعيم الشرق بصوت يشوبه الحزن:

- المنطقة صارت كقطعة جمر ملتهبة، الدمار في كل مكان، البيوت والمصانع والحدائق بل والمدارس والمستشفيات ودور العبادة.

همس زعيم الغرب:

- لعلك تحتاج إلى المزيد من الأطباء، والمهندسين، يمكن لزعيم الشمال أن يجلبهم لك من خيرة بلاده.

قال زعيم الشرق:

_لا أحد يتصور كل هذا العدد من القتلى والجرحى!!

هذا ضعف ما اتفقت معكم عليه.

صاح الكبير:

- بل إنه أقل بكثير مما خططنا له معًا.

التفت إليه زعيم الشرق، بعد أن ارتسمت على وجه ابتسامة كبيرة، ثم همس:

- أعتقد أنه قد حان الوقت لتوقف عجلة الدمار، ويكفيني ملايين المصابين والقتلى والمشردين، على الأقل أعطني فترة راحة ولو لعدة سنوات.

وهنا ثار زعيم الغرب وأعلن أنه لن يسمح بحدوث ذلك قط.

حاول زعيم الشمال أن يهدّئ من روعه، إلا أنه أعلن أن فترة الراحة هذه حتى وإن قصرت فإنها قد تكون كفيلة بالقضاء على شعبه جله.

انتحى زعيم الجنوب بزعيم الغرب وهمس في أذنه:

_أنت تعلم أنني أفقركم، ولو أنك تنازلت لي عن جزء من نصيبك فتأكد أن صوتي سيكون معك.

شعر كبير الزعماء بأن بوادر خلاف كبير قد تفسد اجتماعهم، بل وقد يخرج الأمر عن سيطرته، صاح فيهم جميعًا أن يلتزموا الصمت وأن يكفوا عن الأحاديث الجانبية، وأن لا يفعلوا مثل الغوغاء من

الرؤساء والملوك الخاضعين لهم، وإلا فإنه سيقوم بعزلهم جميعًا واستبدالهم بمن هم أكثر كفاءة ورؤية ورويّة، وجعل يذكرهم مزمجرًا بهول ما حدث لسابقيهم ممن أخلّوا بمبدأ السمع والطاعة، ثم هب واقفا تاركًا مقعده المواجه لهم، وقام بخلع عباءته السوداء ملقيًا إياها بعنف على الأرض الرخامية.

سادت القاعة برهة من الصمت المشوب بالقلق.

تبادلوا جميعًا نظرات الريبة خلسة، قاموا من فوق كراسيهم الفارهة، ثم انطلقوا إلى العباءة الملقاة على الأرض، حملوها في حرص شديد، ثم أعادوا إلباسها للكبير الغاضب، وهو شبه متمنّع.

عاد الكبير إلى سابق هدوئه وكأن شيئا لم يحدث.

بعد أن قاموا بتقبيل يسراه، أمر زعيم الشمال أن يتولى مسألة تجميع صفوة العلماء والمفكرين والفنانين ورجال الدين، على أن يقوم زعيم الغرب بمهام إعدادهم وتدريبهم بنفسه، وفى نهاية الجلسة قرر مضاعفة النصيب الخاص لزعيمي الشرق والجنوب من الذهب، ثم ذكرهم جميعًا محذرًا بأنه لا زال يمتلك كل مفاتيح القوة.

❊ ❊ ❊

روح الأسطورة

ساروا جميعًا خلفه!!

لم يروا سوى أنه المنقذ.... المخلص.... البطل!!

إنها حالة حب، انبهار من نوع خاص.

فهو بلا منازع قد أضحى معشوق الجماهير.

ترى ماذا قد حدث لهم، ليصل هو إلى تلك الحالة الأسطورية؟

ماذا وهبهم؟

ماذا فعل بهم؟

أو حتى بأي الأشياء قد وعدهم؟!

أم أنه لم يشرع قط، حتى بفعل أي شيء، وأن الآخرين هم من فعلوا؟!

هم من قاموا بصناعته.

هم من جعلوه المثل الأعلى والرمز والقدوة.

أم أنهم في الحقيقة، قد قاموا من خلاله بالسيطرة، والعبث بلُبّ الجميع!!

لعلها أضحت لعبة أفعوانية، تمس أحلامهم، وتشتبك بطموحاتهم، وحتمًا تواجه تاريخهم الذي هو في الأصل سر بقائهم.

والآن لعلهم يتساءلون، أو أنهم جعلوا في ريبهم يتخبطون!!

هل هم قد نجحوا تمامًا في السيطرة على عقله هو شخصيًا؟!

وذلك، بعد أن تسللوا ببطء ولكن بحنكة إلى دهاليز نفسه!!

ولكنهم لا زالوا حائرين!
لا يعرفون حقا من منهم قد سُخّر الآخر لخدمته.
هل هم الذين أخذوا روحه؟!
أم أنه هو الذي استطاع امتلاك أرواحهم؟!

❊ ❊ ❊

فنجان فارغ

وتظل وحدك...
الجميع يرقصون... يضحكون... يشربون من خمر عينيك.
يمحون ذكرى ميلادك.
يثرثرون، يتجمهرون، في أم رأسك.
يطالبونك بالنزال... تصارع أهواءهم..
تصارع قلبك.. تفتك بك سني العمر.
تتراجع مذعورًا.
تبكي، صدقًا، أو وهما، تمحو كل الأخيلة من عباءة أملك، تدرك أنك وحدك.
وحدك تصارع أقبية الوهم وتنازل وحدتك علك تقهرها.
تمحو آثار غربتها، وتلعق جراحًا أثخنتها.
وتتجمهر كل الأشياء.
تناديك، أن تعال..
تعال إلى حيث تريد..
إلى يوم جديد، وألمٍ جديد.
ورفيق جديد.
إلا أنك تظل وحدك..
تشعل السيجارة الأخيرة، وتتجرع مرارة الهزيمة، في فنجان قهوتك الفارغ.

❊ ❊ ❊

المنعطف

تتسلل...
تغلق عينيك وتنسحب إلى الخلف.
تستدعيك ذكرياتك الأليمة.
تسحقك كل الأشياء.
تتوقف. تتعثر. تتبعثر.
تحاول أن تلملم شتات نفسك.
تقسم أن لن تعود.
أن لن تضع نفسك ثانية في هذا المنعطف الحرج.
أن لن تعرض حياتك للخطر، وتعيش في هذه الحالة المزرية من الرعب والقلق.
تتساءل في ألم... لأجل من كل هذا العذاب؟!
وهل هناك من شيء يستحق كل هذا العناء؟!
بغتة، تتراجع، تتقهقر.
تسقط.
تهوي.
ولكنك لبرهة تصمت.
تغوص في أعماق الحلم.
أعماق الروح.
تتمالك نفسك.

تتماسك. تعود من جديد...
إلى نفس الطريق، نفس البشر...
إلى نفس الحياة...
ونفس الجسد. تحاول مرة أخرى بلا كلل.

❊ ❊ ❊

عتاب

كيف بك لم تلحظ نصف رأسي المفقود؟!
ألم تزعجك غزارة دمائي، ولزوجتها بين يديك،
وأنت لا زلت شارعًا في تعنيفي؟
ولا تنفك تلومني غاضبًا، من طول غيابي وبعدي عنك،
بينما نصف رأسي الآخر قد جعل يتدحرج بين قدميك!!

❊ ❊ ❊

الوعاء

وقالت لي غاضبة: أنت مغرور، ولا تثق بأحد، أو تصدق إلا نفسك.
وقلت لها في هدوء: إذا فقدنا غرورنا – ونحن آلهة الجمال – ضاعت هويتنا. انفرجت شفتاها عن ابتسامة شاحبة.
ثم قالت: أنت كائن خيالي، شأنك شأن كل أبطال أعمالك.
- أعمالي هي قطعة من نفسي.
- إنك تنتمي إلى قبيلة لا تقدّر الإبداع أو المبدعين.
- أنا لا يعنيني سوى تقديري لذاتي.
تعالت ضحكاتها الساخرة، صحت بها:
- اغربي عن وجهي.
- هل تظن أن بإمكانك أن تتخلص من سطوتي؟!
- سأنزعك من داخلي انتزاعًا.
- ألا تخشى الليل، والوحدة، ألا تخشى نفسك؟!
- سأهرب منك إلى الناس، إلى الشوارع والأضواء.
- أما أنا فلن أخلو إلا بك.
- رغم أنك امرأة ليس هناك حدود لأنوثتها، لدفئها، وحرارتها وعنفوان جمالها، إلا أنك لن تنالي سوى عذابات الفراق وآلام الجفاء.
قالت في مكر وهي تبتسم:
- فلتمنحني إذن فرصة جديدة.

- لتجعليني مثل سيزيف، ولعنته السرمدية، تتهميني بالغرور وأنت حتمًا أكبر مغرورة في الكون كله، أمام آلاف الكلمات من الوله والإعجاب، التي سكبت في أذنيك، من أفواه أولئك الحمقى، المتيمين بك، وجميعهم قد عشق جسدك، ذلك الكيان المذهل، المبهر، السارق لأعينهم...

ونسوا أن هذا مجرد وعاء مصنوع من تراب...!!

ونسيت أنت، أنهم جميعًا مجرد قراصنة...!!

مجرد محترفي كذب، وخديعة، وصيد للجواري والمحظيات.

قالت بعد أن حدقت في طويلا، وقد أوشكت على البكاء:

- ولكن ثمة واحد فقط لم يحفل بذلك الوعاء الخارجي المبهر، ورأى ما بداخله.

نزعت عيني منها، بصعوبة مفرطة، واستدرت خارجًا، وقد اضطربت كل خلجاتي، ثم همست في ألم مشوب بحزن عميق:

- ربما... ربما!!

* * *

العاري

امتلأتُ همًا وحزنًا، حين رأيت أهل عشيرتي وقد انقسموا على أنفسهم، وبات منهم من يتخذ من الأوثان ربًا ومن البشر إلهًا.
وجعل بعضهم، يخلط الإناث بالذكور، حتى تمادوا، فنكحوا هذا بهذا وتلك بتلك، ثم أقاموا الولائم ومنحوا التمائم.
وأمسى على قمة بعض الجبال، جباة الجزية، وقد اختلطوا بجامعي الزكاة، والعشور، وقد اندس بينهم ليلا من يلاعبهم الميسر، ثم أوشك صباحًا أن يسلبهم كل ما جمعوه.
وهناك – على قارعة الطريق – أقعى بعض الرجال قاعدين، وقد تيبست أعضاؤهم، وسكنت ملامحهم، فصاروا كتماثيل من شمع؛ صم، بكم، عمي.
سألت أحد المارة في فضول: ماذا ألمّ بهؤلاء؟!
نظر إليّ في حدة، ثم قال:
ويحك يا هذا، إنهم ينتظرون المَنّ والسلوى.
أسرعت أحث الخطى، أبحث في كد عن بيتي..
في وسط الميدان هالني ما رأيت... رجال لهم أظافر من نحاس، ينهشون بها وجوههم.
كانت الدماء تغمرهم، بينما هم شارعون في فعلهم لا يتوقفون حتى أوشك لحم وجوههم أن يتساقط أرضًا .

رجوت أحدهم في خوف، أن يتوقف، إلا أنه نظر إليّ والدم ينهمر من وجهه بغزارة، ثم أخرج سيفًا كبيرًا، و نظر إلى السماء، قبل أن يهوي به على رأس زميله، مطوحًا بها في الفضاء.

صرخت فزعًا... هرولت هاربًا.

أوقفني رجل دميم، ضخم الجثة، حاد النظرات، لحيته تصل إلى منتصف صدره، وجلبابه طويل يكاد يتعثر فيه.

سألني: إلى أين؟!

قلت له: من أنت؟!

نظر لي بسخرية ثم قال:

- أنا مخلّصكم... كيف لا تعرفني؟!

صرخت :

- ابتعد... أفسح لي طريقي.

- أنت واحد منا.

- ولكني لا أريدكم.

لكمني بقوة في صدري..

شددت لحيته.. نزعتها من ذقنه، أمسكتها بيدي وقد أدركت أنها مستعارة.

استدار ولطمني على وجهي.

ركلته بقوة في مؤخرته..

ضحك كثيرًا، شققت عنه جلبابه، فبدا لي عاريًا كيوم ولدته أمه.

قال لي في خبث وهو يداعب أعضاءه العارية:

- تعال معي وسأضمن لك نهرين، أحدهما عسل والآخر خمر معتق.

صحت في دهشة:

- خمر!!

همس بصوت أشبه بفحيح الأفعى:

- خمر ليست من العنب أو البلح.

ارتج علي أمري، وأصابتني حيرة شديدة.

تعالى صوته آمرًا من حوله: أحضروهم فورًا.

وفي بضع لحظات، تجمع الغلمان حولنا، وبينهم بعض الجواري الحسان.

نظر إليّ في ثقة ثم قال:

- هؤلاء لك، ملك يمينك.

حاولت أن أفلت من حيز حصارهم.

جاءوا إليّ بصدر امرأة وقالوا لي:

- هيا.

صرخت:

- أليست كبيرة من الكبائر؟!

قالوا لي:

- ليست بكبيرة على الكبير... هيا، أسرع، وتعلم....

صرخت في حدة:

- أتعلّم ماذا؟!

- تعلـم أن لا تفـرق بـين الميـت والحي، فكلاهمـا واحـد، هيـا... ارضع،واخشـع.. هنيئـا لـك، فأنـت إن فعلـت، صـرت المختـار، كـن حكيمًا وافعل.

صرخت:

- دعوني.

أمسـكوا بـي بعنـف، فتحـوا فمي عنـوة، ثـم ألقمـوني صـدر المـرأة، وجعلوا يقطرون من لبنها وعسلها..

انهالوا عليّ ضربًا مبرحًا..

صرخوا مهللين:

- أنـت المختـار، هيـا... هيـا اركـع وارضـخ للمخلـص، فـلا بـد لـك مـن إتمام هذا الأمر.

قلت لهم في خوف، وقد تفصد العرق من كل شبر في جسدي:

- هذا العاري، ليس بمخلّص أحد منكم، إنه، أفّاق، دعيّ، فليستر نفسه أولا.

نظـروا إليّ في تعجـب.. كـانوا يتفحصـون أعضـاء جسـدي في نهـم شـديد. نظرت إلى نفسي، وقـد ألجمتني المفاجـأة، حـين وجـدتني أنـا أيضًا عاريًا، كيوم ولدتني أمي!!

* * *

صاحب النظارة السوداء

فى لهفة شديدة رحبنا به... تحلقنا حوله... بمجرد وصوله إلينا، في مقهى وسط البلد.. في نفس الميعاد من كل سنة يأخذ إجازة من عمله في إحدى دول الخليج ويأتي في زيارة خاطفة لمصر.

يبحث عن كل أصدقائه، وجميع من في المقهى يساعده، حتى صاحب المقهى نفسه ومديرها، يقوم باستدعائنا تلفونيًا للقائه الذي عادة ما يكون حارًا، وخاصة أنه لم يحضر يومًا إلا وكان محملا بالهدايا والخيرات.

كل عام قبل أن يسافر ونحن نودعه، لا يفتأ أن يردد أنها السنة الأخيرة له في الغربة.

كانت الدموع تملأ عينيه، اللتين كنا نراهما بوضوح، رغم نظارته السوداء سميكة الزجاج.

آخر مرة حضر، لاحظ أن صاحب المقهى صار شيخا طاعنا في السن، اقترب منه، وبعد أن رحب به كثيرًا سأله عن أفراد شلته المقربين.

أجابه بأنهم جميعًا قد رحلوا ولم يعد يتبق منهم سواي أنا.

أتيت على عجل للقائه....

قال لي:

زوّجت بناتي الثلاث، ولم يتبق سوى ابني الأصغر، حالما أجهز له شقته ستنتهي مهمتي في الخارج وأعود أخيرًا إلى وطني، حيث يمكنني أن أقضي بقية حياتي بين أهلي وأصحابي، وحين سألته عن زوجته أخبرنى أنها عانت كثيرًا لفراقه.

في البداية كانت تمنى نفسها باللحاق به، ومعها كل أبنائها، إلا أنها ومع مرور الأيام والشهور والسنوات، نسيتْ حتى هذه الأمنية ولم يعد يهمها سوى المال الذي يسترها.

حدثني عن الشوارع التي لم يعد يعرفها... والعمارات التي نطحت السحاب، والمحلات التجارية التي حلت محل تلك البيوت العتيقة التي كانت تشع بالسكينة... كلمني عن أبنائه الذين كبروا بعيدًا عن دفء عينيه، وصار لا يربطهم به سوى العلائق المادية، حكى لي عن قسوة الوحدة، وبرودة ليالي الغربة.

ولأول مرة يسألني عن نفسي وعن زواجي الذي تأخر كثيرًا.

ابتسمت.. قلت له: لقد فات أوان هذا الموضوع، وذكّرته بأنني مجرد موظف بسيط.

نظر لي في دهشة قائلا: صرت مديرًا عامًا، ولازلت تحسب نفسك موظفا بسيطًا.

استدرت إليه في حدة ثم صحت به: ولكنني في النهاية مجرد موظف حكومي شريف.

هذه المرة تحديدًا كانت سنوات الغربة كلها تتضح بجلاء على وجهه!!! شعره الناعم الغزير لم يعد يتبقى منه سوى بضعة خصلات بيضاء قد تهدلت على جانبي رأسه، وبدت التجاعيد التي حفرت على وجهه وكأنها ترسم خريطة لوطن آخر غريب يقطن كل ملامحه، كما أن نظارته البلاستيكية بدت أكثر سوادًا وسُمكًا.

همس لي في حنو بالغ: لم يعد لي من صديق حقيقي في هذه البلدة سواك، ثم أردف في حزن مفرط: تخيل يا صديقي أن زوجتي وأولادي قد صاروا غرباء عني....

عندما آتي في العام المقبل سأقوم بعمل مشروع صغير، وسأجعلك أنت مديره، بل وشريكًا لي بكل خبراتك الإدارية والمالية.
ودعته في فناء المطار، وأخبرته أنني سأنتظره، في نفس التوقيت من السنة، ونفس المكان في مقهانا الأثير..
وبعد مرور عام آخر، عاد صديقي إلى أرض الوطن، كانت مظاهر السعادة تبدو عليه، حتى أنه كان قد خلع نظارته السوداء.
ود لو يخبرني أنه أخيرًا قد ودع سنوات الغربة، وأصبح حرًا طليقا، وأضحى يمكنه أن يحيا الآن لنفسه، يحيا الحياة التي كان يتمنى أن يحياها.
ولكنه لم يجدني!!
وحين اقترب من صاحب المقهى، فوجئ أنه لم يعد يعرفه!!
لم يحاول حتى أن يذكّره بنفسه، ولكنه سأله عني في شغف شديد.
وأخبره صاحب المقهى في حزن، أنني قد رحلت... رحلت أمس، وأن جميع من في المقهى قد حضروا جنازتي.
أقعى صديقي على الأرض جالسًا... وحيدًا، شاردًا.
لم يبك أو يذرف الدمع.
فقط جعل يبحث في ارتباك عن نظارته السوداء في إحدى حقائبه، ثم نهض بصعوبة مستندًا على أحد مقاعد المقهى، وقرر الرحيل.

❊ ❊ ❊

الخبز واللبن

مـا كـان يحـدث لهـم، لـم يكـن قـط يـدعوهم إلـى الحيـرة!! هنـا في هـذه البلـدة الصـغيرة كل مـا حـدث اليـوم، كـان قـد حـدث بالأمس، وسـوف يحدث غدًا.

❊ ❊ ❊

في الصباح يقبل بائع اللبن، يترك زجاجاته الممتلئة أمام كل دار من دور البلـدة، ليـأتي مـن بعـده بـائع الخبز محملا بأرغفتـه الشـهية، الساخنة.

ظل هذا يحدث لعهود طويلة؟

إلى أن اسـتيقظ ذات يـوم سـكان البلـدة فلـم يجـدوا زجاجـات اللـبن ولا أرغفة الخبز!!

ولما كان ما قد حدث بالأمس، لم يحدث اليوم، فإنهم انتظروا لعله قد يحدث باكرًا، ولكنهم في الغد لم يجدوا أيضًا أي شيء، ولأن هذا وعلى غير العادة يحدث لأول مرة فقد جعلوا يتساءلون عن سر هذا الاختفـاء العجيـب للـبن والخبز... وبعـد مضـي عـدة أيـام والجـوع يقـرص أحشـاءهم، شـرع الـبعض يهمهـم همهمـات غير مفهومـة. بيد أن حكماء البلدة قرروا في عجالة عقد اجتماع طارئ، خشية أن تنتشر هذه الهمهمات في الأنحاء، والخوف كل الخوف ليس من

الجوع أو الحاجة، بل من أن تتحول هذه الهمهمات إلى كلمات مفهومة، واضحة مسموعة.
وفي هذا الاجتماع الذي قلما يحدث إلا لأمر جلل.... استوى كبيرهم في جلسته، ثم قرر استدعاء بائعَي اللبن والخبز لسؤالهما عن سر ما يحدث!
وحين حضر البائعان أكّدا أنهما لم يقصّرا يومًا في أي شيء، فهما لا زالا على نفس عاداتهما، حيث يضعان كل صباح حصة كل عائلة أمام كل باب من الأبواب الموصدة...
احتار الحكماء، شرعوا هم أيضًا في الهمهمة، الأمر الذي دفع بكبيرهم إلى نهرهم بشدة مع قراره الملزم بأن يراقبوا كل دار من دور البلدة، على أن يعودوا جميعًا إلى بيوتهم، ويحكموا غلق أبوابها جيدًا، وعلى من يخالف التعليمات أن يتحمل عاقبة فعله.

❊ ❊ ❊

ناموا جميعًا ...
وعند شروق الشمس كانت الأعين المتلصصة، ترقب ما يحدث، إلى أن داهمتهم المفاجأة...
غريب طاعن في السن، ذو وجه أسود ذابل، أصلع تمامًا، أحدب الظهر، أعور العين، يرتدي ملابس رثة مهلهلة.
هذا الغريب هو من يقوم بالمرور على كل دور الحي ليجمع زجاجات اللبن وأرغفة الخبز!!

❊ ❊ ❊

اجتمع حكماء البلدة...

احتاروا في أمر هذا المخلوق العجيب، رجح بعضهم كونه ينتمي إلى عالم الجن أو الشياطين، سيطر الذعر على الجميع، فلم يجرؤ أي واحد منهم على منعه مما يفعل، تفاقمت الأزمة، أوشك البعض على الهلاك جوعًا، وعلى حين غرة قرر شجعان البلدة على ندرتهم أن يراقبوا هذا المسخ، ومع خوفهم المترسب في أعماقهم منذ آلاف السنين، ساروا خلفه متسترين بكل حائط أو شجرة أو حتى جذع نخلة عتيق....

وبعد مشوار طويل وسقوط العشرات منهم من أثر التعب، استطاع كبير الشجعان أن يبصره، وهو يدلف في فتحة صغيرة إلى قاع الأرض!!

تأكدوا جميعًا – حتى كبير حكمائهم – أنه بالفعل شيطان رجيم، يهبط ويصعد حينما يشاء من أعماق الأرض التي هي في نظرهم حتمًا مقر للجان والعفاريت.

❊ ❊ ❊

لبثوا جميعًا، في بيوتهم، والذعر يملأ قلوبهم، ولكن بكاء النسوة والعجائز وموت الأطفال جوعًا جعل حكماء البلدة يجتمعون للمرة الثالثة، وبعد عدة ساعات من المداولات العقيمة كان قرارهم بأن يغامروا بكبير الشجعان، الذي استطاع بالفعل أن يقتحم حفرة

هذا الغريب ليفاجأ بمئات الأطفال العرايا إلا بما يستر عوراتهم... كان مشهدًا غريبًا عجيبًا!!

وقف كبير الشجعان أمام المسخ وهو يرتعد خوفًا، إلا أنه تمالك نفسه بصعوبة وهمس متسائلاً: كيف أتيت بكل هؤلاء الأطفال؟

نظر المسخ إليه بعينه الواحدة، ووجهه المشوه، ثم قال في قوة عصفت بكيان الشجاع:

إنهم أطفالكم...

نعم أطفالكم.

كاد كبير الشجعان أن يغشى عليه من الذعر، حين اقترب منه المسخ وهو يستطرد بصوته الذي يشبه فحيح الأفعى:

كل بيت لكم له عندي خطيئة وطفل.

تمتم كبير الشجعان مشدوهًا:

أطفالنا... خطايانا... نحن!!

صاح المسخ صيحة جعلت كبير الشجعان يبول على نفسه رعبًا:

نعم أطفالكم وخطاياكم أنتم جميعًا... وأنا من جمعها من على قارعة الطريق.

* * *

سادت الفوضى أرجاء البلدة الصغيرة، وتعالت الهمهمات حتى تحولت إلى أصوات مفهومة، مسموعة، عندئذ قرر كبير الحكماء أن يتجه كل سكان البلدة إلى هذه الحفرة العميقة، ليتعرفوا على

أطفالهم، الذين خرجوا من الحفرة ليصطفوا في طابور طويل، إلا أنهم جميعًا كانوا عميانًا خرسًا ذوي ملامح واحدة متشابهة!! فى مشهد مهيب رهيب، وهم جميعًا تحت شمس الظهيرة، يقفون في طابور طويل، يتقدمهم المسخ الذي لا زال مرعبًا، ليمر كل رجل من رجال البلدة أمام كل واحد من هؤلاء الأطفال، ولكنه لا يعرف أيهم ابنه...

أيتها خطيئته!!!

عادوا جميعًا يجرّرون أذيال الخيبة، يتقدمهم حكيمهم العجوز وكبير شجعانهم... رجعوا إلى بيوتهم، بينما ارتد طابور الأطفال إلى جحره.

في صبيحة اليوم التالي.....

لم يقم المسخ بجمع اللبن والخبز، وإنما كان صاحب كل دار من دور البلدة يقوم بنفسه بوضع نصيبه من اللبن والخبز أمام حفرة المسخ العميقة.

❊ ❊ ❊

رفيق

رفيق، وطير لا يحلق، وشمس لا تشرق ونفس تغور، تهوي، في عمق حقيقة، تحسبها من سراب.

يا رفيق...

أنت... لم تكن يومًا ولن تكون... فأنت... كما أنت!!

في درب العبث تلهو، ربما، أو دائرة الجنون.

يا صاحب...

إن أتيت يومًا لي... تشكو... وتهجو.. وفي النهاية تسب.. وتلعن غلظة السنين.

فأنا متعب، وحزين..

فأنا لن أصدق أبدًا خيالك العليل وسرابك المريض.

تحادثني عن سر الحقيقة، ولعنة الزمان، والمكان؟!

حيث لا تراجع... ولا فكاك؟!

لا عفو، ولا سماح؟!

يا صديقي..

ربما تدرك غدًا....

أو بعد غد..

ربما تعلم أنها عين من نهار، ونهر من ظلال.

❊ ❊ ❊

الأمطار

وتأتي يومًا...
شريدًا... حزينا..
تؤرقك بعض الحقيقة..
يحاصرك كل أفراد القبيلة.
تغتالك الذكرى.
تعصف بك...
تهرب...
تأخذك السنين في غفوة.
وحين تستيقظ...
تعود حزينا...
جريحًا بلا دماء، تبحث في كل من حولك....
تبحث عن ثوب الإنسان.
ضحكة الإنسان.
قلب الإنسان.
تنزع عنك أجنحتك، تهوي فوق ربوة عالية.
قبل أن تسقط دمعتك، تعلن أن يومًا ما، ستأتي حبيبتك.
ستأتي كقطرة الندى.
أو ربما كريح الفلا.
ستأتي يومًا، كفراشة البستان.

أو ربما كغانية السلطان..
ربما أو ربما....
ولكن حتمًا...
حتما ستسقط الأمطار.

❊ ❊ ❊

كوابيس

استيقظ من النوم، مشدوهًا، مفزوعًا، بعد أن داهمته جحافل الشر في مطاردة طويلة استغرقت الليل كله.

أدرك بعد لأي، أنها مجرد أضغاث أحلام.

نهض من سريره.

ازدرد كوبًا من الماء البارد.

لملم شتات نفسه.

عاد بصعوبة إلى بوتقة الواقع.

تذكر ما عساه أن يفعل اليوم... وأين يجب أن يذهب؟

ومن حتمًا سيواجه؟

تذكر باستياء، برنامجه اليومي المعتاد، والذي لم يتغير منذ أكثر من عقدين من الزمن.

تذكر... وتذكر... وتذكر!!

عاد إلى سريره ثانية حزينًا، مقهورًا، منهكًا.

غط في النوم مفضلا ساحة أوهام كوابيسه المزعجة.

❊ ❊ ❊

تـألم وتعلم.

أن لا تنشر دمعًا...
إن تنشر حلمًا...
أن تنشر أملا...
لا تكن عصفورًا مراق الدمع، مهدر الدم.
فوق زجاج مكسور لا بد أن تمضي... فلا تصرخ، فلا تنبس.
في دوامة الأحزان تكتب عمرًا وتمحو سطرًا وتبتسم..
تألم...
وتأمل...
في حدقتيك جمعوا السيوف وشهروا الحروف فلا تجزع ولا تهرب..
فلن تندم.. لن تبكي على حال على عدم، قف وابسط جناحيك..
انهض وحلق كنسر جَسور وإن كسروا ذراعك.
لا تعرف الخوف أو الخنوع، وحين يباغتك الحزن.. اصدح بغناء من لا يسمعه موتور، من لا يسمعه حتمًا فاسق أو داعر.
تألم... وتأمل... وتعلم.

❊ ❊ ❊

قربان

أنت لا زلت أنت!!
وأنا هل لا زلت؟
عدت أنت، وأنا ما عدت!!
ألا زلتِ تصفعين أذني، بأهازيج كذبك؟!!
ألا تدركين، أنك بقايا بهتان؟!
أتظنين أنني لم أعد قادرًا على النسيان؟
وهم أنت.... أم غدر في ثوب إنسان؟!
أنا لست جرحًا، أنا قلب نازف، في طي الزمان.
النار ساقية، تمضي بلا غفران.
بلا صفح لأي إنسان.
وما أنت إلا ظل لطلل ولا ظل لفقدان أو دمع يزيل الأحزان.
هيا تواري وامضي لتوك فأنا لا قارب، ولا قربان.

❊ ❊ ❊

الدعي

فى خيلاء طاووس متغطرس، فرد جناحيه الكبيرين، ثم حط أمامي بغتة!

لم أجفل، أو أتراجع.

لم تأخذني حتى رجفة أو رعشة.

ابتسم مندهشًا، همس: وكأنك رأيتني من قبل!

ضحكت.

أردف: لو أنك رأيت وجهي الحقيقي، لما ضحكت.

كان الجو عاصفًا والظلام دامسًا.

وأنا أسير وحدي، في طريق طويل من رمال.

قدماي ثقيلتان، متعبتان، ورأسي مثقلة بطنين آلاف الأفكار.

رفعت وجهي إلى السماء.

غمرني شعاع من نور.

أخذته الريبة، وارتسمت على وجهه علامات القلق.

خفت قدماي، وانتصب طريقي، في فضول جعلت أقترب منه.

تراجع مرتبكًا.. هرولت إليه.

سقط على الأرض مذعورًا.

صرت منه قاب قوسين أو أدنى.

مددت يدي، وهممت أن أضعها فوق رأسه.

إلا أنه تماهى مع ظلام الليل، ولم أجد له من أثر!!

❊ ❊ ❊

الخنجر

الشمس ساطعة.
الجبال شاهقة، تحاصرني من كل جانب.
أخي ينزف بغزارة.
تلفتّ حولي أبحث عن معين، ولم أجد سوى رمال وسراب.
أوشكت كمية الماء معي على النفاد.
سكبت آخر ما تبقى من قطراتها في فم أخي، الذي نظر إليّ معاتبًا، ثم همس: لا زال الطريق أمامك طويلا، كيف ستمضي بلا ماء؟!
انهمرت دموعي.
حاولت أن أسحب ذلك الخنجر الضخم من صدره.
دفع يدي، وهو يتألم.
صاح بي: اتركه في مكانه.
اختلط العرق الذي يتفصد من جسدي بدم أخي، امتزج به.
لا زلت أحمله بصعوبة.
قدماي المتشققتان تغوصان في تلال الرمل الحارقة.
صحت به متوسلا: هلا سمحت لي أن أتفحص ذلك الخنجر اللعين، لعلي أعرف صاحبه.
ولكنه همس في صعوبة متسائلا: هل يفرق معك أن يكون صاحب السكين واحدًا من أشقائنا، أو أبناء عمومتنا، أو حتى أحد جيراننا؟!!

هربت الكلمات مني.

ضاع صوتي.

تحجرت الدموع في عيني.

أردف أخي في حزن مشوب بالمرارة وكأنها آخر كلماته: يا أخي دعني وامض إلى حال سبيلك، فأنا لم يعد يعنيني من أمري من قد فعلها، الآن قضِي الأمر، وباتت النتيجة بالنسبة لي واحدة.

❊ ❊ ❊

الأصل

توقفت أمام قفصها الحديدي!!
ولا أدري لمَ اعترتني هذه الرهبة الشديدة.
كان شعرها ناعمًا، طويلا، يغطي جسدها العاري.
أصابع يديها، منحوتة بدقة، تنضح بأنوثة طاغية.
ملامح وجهها، مرسومة بعناية، نظرات عينيها حزينة.
تسمرت أمام القفص، وانتابتني مشاعر شتى.
ثمة شيء خفي يربطنا معًا!!
أو لعله نفس الإحساس الذي يتملكني، حين ألتقي بشخص لأول مرة، ويشملني يقين بأن ثمة صلة ما بيني وبينه، وكأننا نعرف بعضنا البعض من قبل!! لاحظت هي اهتمامي بها، فتحركت في تؤدة، حتى اقتربت مني.
أصابتني رعشة قوية حينما حدقت بقوة في عيني.
كان بها جمال، وشموخ، لا يخلو من غضب مشوب بحزن عميق.
شعرت بها، وكأنها تود أن تقول شيئا، أو تبوح لي بسر عظيم يؤرقها.. جعلت أتفحص جسدها ببطء.
التفت إلى المسؤول عن رعايتها، ثم قال: هذا النوع من الشمبانزي، متطور جدًا، وهو يمتاز بالقوة والرشاقة.
قلت له: إنها تشبهنا تشابهًا شديدًا، لا يفرقها عنا سوى الذيل.

ضحك المسؤل كثيرًا، إلا أنى أردفت: إنها تكاد تنتمي إلى عالمنا نحن البشر.

قاطعني قائلا: ولكنها قبيحة جدًا.

صحت به: بل هي أجل وأعمق من معظمنا، ربما كانت قاب قوسين أو أدنى من الولوج إلى عالمنا.

ارتسمت علامات التعجب على وجهه، ثم قال: هل أنت من مؤيدي نظرية الارتقاء لداروين؟!

أم أنك قد شاهدت كثيرًا فيلم كوكب القرود؟!

كانت نظرات الشمبانزي الحزينة تلاحقني، تبعث في نفسي إحساسًا عجيبًا، هو خليط بين الخوف والدهشة.

أمسكت الشمبانزي بقضبان القفص، ورفعت رأسها لأعلى في كبرياء شديد، دون أن تتوقف نظرات عينيها عن التوغل في أعماقي.

قال لي المسؤول: يبدو أنك معجب كثيرًا بها.

همست: قد يكون الإعجاب من طرف واحد.

أثناء سيري مبتعدًا عن القفص، كانت الشمبانزي تصيح بقوة، وكأنها غاضبة لانصرافي عنها.

حين استدرت بوجهي لأودعها، كانت هي قد أولتني ظهرها.

وللغرابة الشديدة، أدهشني عدم وجود ذيل لها!!

❊ ❊ ❊

امرأة بلا ملح

بات يسمعها، ما لا تطيق سماعه، وأضحى يتعمد ازدراء كل ما تطهوه من طعام، أو ما تقدم له من شراب.

تخلص من كل مقتنياتها القديمة التي كانت تعتز بها كذكرى لزمن ولّى، أو لصديقة حميمة.

لم يترك لها من صديق أو قريب، إلا وافتعل معه مشاجرة حامية أسفرت عن قطيعة شبه نهائية... احتدت عليه مرارًا... حاولت أن تكسر شوكة عناده. أخذته رفقا وعنوة.. استعانت بكل معارفه في محاولة منها لإصلاحه، ولكنه ظل على حاله لا يقدّر حبها وصبرها عليه.

ظلت الحياة ماضية بينهما في صراع وجدال عقيم لا يفضي إلا لشقاق يعقبه نفور ثم قطيعة توشك أن تخلف كرها وفراقا... لما ضاقت الدنيا بها وأحكمت حلقاتها، طلبت منه أن يحررها..

صدمه قرارها..

صاح بها متعجبًا: أنت ملكي... كيف لي أن أتنازل عنك؟

ثم استشاط غضبًا، واستحال وحشًا كاسرًا.

حملت حقائبها، وولت هاربة مذعورة إلى دار والدها.

لم ينصفها أحد من أهلها!!

حتى أبوها أعادها بنفسه إلى بيت زوجها وهو يتمتم: لن أسمح لك أبدًا بخراب بيتك.

تملكها الحزن وأصابها غم شديد، وهي تشاهد زوجها يزداد أنانية، وكبرا. قررت الذهاب إلى أحد المشايخ ممن ذاع صيتهم، وقدرتهم على حل المشكلات الأسرية.

طلب الشيخ منها بعد أن استمع إليها طويلا، أن تتحلى بالصبر.

صاحت به: أرجوك يا سيدي ساعدني.

نظر الشيخ الجليل إليها في حدة ثم همس في أسى: الأمل جد ضئيل، لتغيير مثل هذه النوعية من الرجال، إلا أنك الوحيدة القادرة على فك طلاسمه. أقسمت أنها اتبعت كل الطرق، ما بين اللين والقسوة، الرفض والقبول، الاهتمام والازدراء، الوصل والهجر...

ولكن شيخها الجليل قاطعها غاضبًا: أين إيمانك بالله؟ أين ثقتك برحمته؟ غادرت شيخها، عادت إلى بيتها متعبة حزينة.

حاولت أن تنام..

حاصرتها ذكرياتها المشبعة الآلام...

أسقط في يديها ولم تعد تدري ماذا تفعل!!

في صباح يوم جديد، أدركت أنه قد حدث بداخلها شيء عجيب!

لم يعد هناك ألم، أو حزن!!

لم يعد هناك إحساس بأي شيء على الإطلاق.

صارت تلبي لزوجها كل أوامره بلا جدال...

ولم تعد تطلب منه أي شيء قط!

حين يفتح معها بابًا للنقاش، لا تتورع عن تأييده الكامل لكل موضوع أو فكرة أو حتى مشروع هو يتبناه.
الأمر العجيب أن زوجها لم يفرح لما اعتراها من تغيير عظيم.
بل تملكته حيرة شديدة!!
حاول عبثا إعادتها إلى سابق عهدها معه..
بات يفتقد كل معارضاتها ومشاكساتها، وتحرق شوقا إلى غضبها وشدتها معه!
فى داخل عالمها الجديد الذي صنعته، بعد معاناة وتدريب عظيم على كبح جماح نفسها ..
هناك صارت لا تغضب من تصرف سيء لأحدهم أو تحزن حتى على فراق حبيب!!
أضحت تأكل أي طعام بدون ملح على الإطلاق، حتى الشراب الذي يقدم لها لابد أن يكون خاليًا من السكر!!
بعد فترة قصيرة تفاقمت حالتها حتى حسبت نفسها كائنا هلاميًا، لا لون له.. أصابت الدهشة أباها وبهت كل من حولها!!
غضب زوجها غضبًا عظيمًا، لم يعد يدري ماذا يفعل!
توسل إلى أبيها أن يعيدها إلى سابق عهدها معه، ولكنه نظر إليه في سخرية مريرة ثم انصرف عنه دون أن ينبس.
أخيرًا أخبرته إحدى صديقاتها المقربات بأمر الشيخ، وناشدته أن يذهب إليه عله يعيدها إلى سيرتها الأولى.

عندما توجه إلى بيت الشيخ ودلف داخلا هاله ما رأى....
كانت زوجته جالسة على مقعد وثير ومن حولها عشرات النسوة، وقد افترشن الأرض وهن يتطلعن إليها في وجل، بينما الشيخ، قد طفق ينحني ليقبل طرف عباءتها في خشوع، راجيًا أن تتفضل وتمنح الجميع قبسًا من نورها، أو حتى بعضًا من فيض سلامها.

❊ ❊ ❊

محمد رشيد

حين قابلته، بعد مضي أكثر من ثلاثين عامًا عرفته على الفور...
كان يقف في محطة الباص، ومعه طفل صغير.
ملامحه لم تتغير كثيرًا، سوى احتلال الشعيرات البيضاء لمعظم فروة رأسه. قصير القامة، شديد النحافة، حتى نظارته السوداء البلاستيكية، سميكة الزجاج، يبدو وكأنه لم يغيرها منذ كنا صبية في الصف الثالث الإعدادي. محمد رشيد...
صديق الطفولة العزيز وزميل الدراسة المتفوق.
كنا جميعًا نسعى إلى شرف صداقته، بأخلاقه العالية، وأدبه الجم، وعبقريته النادرة.
وكان هو النموذج المبهر لأي طالب علم، فهو الأول دائمًا في كل المراحل، بل وفي كل المواد.
نابغ حتى في مادة التربية الفنية، برسوماته الدقيقة ولوحاته التي تنافس أبرع الفنانين.
إلا أنه – وعلى غير المتوقع – قابلني بفتور شديد.. وكأنه لا يعرفني!!
عاد يحادث ابنه، ينهره بشدة لفعل لا أعلمه.
حاولت ثانية – بعبق الماضي وشغفه – أن أجاذبه أطراف الحديث، لعلنا نسترجع دفء ذكريات الصبى، والسنوات الدراسية، إلا أنه نظر إليّ في ازدراء مفرط، ولم ينبس سوى بكلمات مقتضبة، جافة.

صدمتني طريقته المتعالية في الحديث.
كدت أعنفه أو حتى أسبه على جفاء مشاعره، وتدني خلقه.
انصرفت عنه، حتى دون أن أحييه. بعد أن ابتعدت عنه بعدة خطوات، التفتّ إليه في غضب وجعلت أتفحصه، وهو لا يكاد يشعر بي.
لاحظت أن ملابسه متنافرة، غير متسقة مع بعضها البعض، بينما كانت ملابس ابنه شديدة التواضع.
استرقت السمع، لما يدور بينهما من حديث.
جعل يعاود تعنيف ابنه على فعلته الشنعاء وكيف أنه غافله، ومد يده في سلة القمامة ليتناول بقايا قطعة شيكولاتة، كانت ملقاة به.
أصابتني الدهشة!!
ألمّ بي حزن عميق..
استكملت طريقي بصعوبة، وأنا أحاول أن أتجنب معاودة النظر إليه.

❊ ❊ ❊

دعكم مني ومن ظنوني

دعكم مما يشاغل لبكم، أو يناكف أحلامكم.
دعكم من كل الجد، فبعض الجد لهو.
دعكم مني، ومن جنوني...
فأنا إن شئت منكم، وإن شئتم ألا أكون.
لا شأن لكم بقصة مولدي.
لا شأن لكم بلحظة، أحببت فيها أخفيت أو جهرت، فما بالكم إن أعلنت أو لعنت.
ألم أقل لكم؟.. دعكم مني ومن شئوني..
دعكم مني، ومن وطن في داخلي يحترق.
يئن بالغربة، بالفرقة، بالظنون.
وكفاكم كذبًا ومجونًا.
في المرايا صورة، ليست بالجد هي صورتي.
ليست باليقين، تلك قد تكون عوراتكم.. أو سوأتكم التي تخفون.
يا صديق.. الدمعة يومًا قد تخون، والبسمة دومًا تجور.
وأنا وأنت نسبح في فلك الظنون.
يا صديق.. لا تقل لي كل إلى مرقده سائر، أو حتمًا إلى حتفه ملازم.
لا تقل لي كل ملاق، فنحن كل مفارق.
وأنا نار تحرق كبركان غضب الإله، أو نور يهدي كقبس من مشكاة النجاة. دعكم مني ومن شجوني، فكلكم مني ومن جنوني.

❊ ❊ ❊

إلى متى تبكي الحمير؟!

في...!!

في كل مكان يمكنك أن ترانا...

في...!!

في كل مكان تتدلى ملامحنا المفزوعة على حبال اليأس المتشابكة الملتفة حول أعناقنا لفات لولبية أخطبوطية لا فكاك منها.

في...!!

في كل مكان تتصاعد آهات أنفاسنا المتعبة اللاهثة حتى عنان السماء.

في...!!

في كل مكان تضيع ملامحنا تتشابه.. تتلاشى وسط هدير الحقيقة المرة في سفينة الغموض والنسيان.

❊ ❊ ❊

لعلي أتحدث بصراحة.. أنثر كلمات كثيرة على الورق الأبيض وبالقلم.. أي قلم!!

لعلي أقول، ولعلي أيضًا لا أقول أي شيء.

الشيء الحقيقي الوحيد والمؤكد هو رغبتي في البوح.. البوح بحرية.

الحرية!!

الحرية بمعناها البسيط الخالي من التعاقيد التي طالما تحاصرها بحواجز ربما تجعلها أشد وطأةً من العبودية نفسها.

الحرية!!!

الحرية البسيطة.. الجميلة....

حرية النظرة الأولى والانطباع الأول..

حرية العمل بدون مسودات أو هوامش أو بروفات..

بدون مراجعة.. بدون تنقيح.

- أيها الباحث عن الحرية ماذا تريد؟!

- بل قل لي أنت ماذا تريد؟!

- أريد الكثير وأبحث عن..

- تبحث عن ماذا؟

- يبدو أنك لا تفهم.

- ولكنني أراك قد شرعت تتوغل في أشياء معقدة ودقيقة.

- عفوًا ولكن عذري أنني أحاول أن أعبر عن بعض مما يجول بأعماقي.

- تقصد هدوء العاصفة قبل الهبوب.

- ربما هدوء الرماد بعد الحريق.

فى حدة: أنت حمار.. فقط حمار ولا تعطي لنفسك حجمًا أكبر من حقيقتها.

فى هـدوء: نعـم أنـا حمـار ولا ولـن أنكـر ذلـك، فأنـا أعشـق صـورتي وهيئتي تلك ولا أود أو أرغب في التخلص منها أبدًا، ولي أن أفتخر كل الفخر بإخواني الحمير وبأبناء عمومتي من بقية الحيوانات.

- إذن قل لي متى تبدأ حكايتك؟!

- أرجوك لا تسألني عن الزمن.

- كيف؟!

- صدقني هذا لا يهم.. ولتعلم أن مفهومي للزمن يختلف كثيرًا عن مفهومك أنت كإنسان.

- هل ستعبر عن مشاعرك الخاصة فقط؟!

- مشاعري هي مشاعر الحمير خاصة وكل الحيوانات عامة، بل هي مشاعر جميع المخلوقات.

- والآن ماذا تريد مني؟!

- أن نتبادل معًا الهيئات.

في دهشة: كيف؟!!

- بمعنى أوضح تنتقل روحي في جسدك الآدمي وتنتقل روحك في جسدي الحيواني.

- إنها فكرة مجنونة.

- بالتأكيد، ولكن صدقني إنها تحدث كثيرًا.

- حمار مفكر!! يا لها من فكرة!!

- أرجوك لا تسخر مني.

- ولكن!!

- لكن ماذا؟! أنا لا أنشد سوى الحرية، ولا يهمني سوى أن أبوح بالسر.

- أي سر؟!

- ذلك القرار الخطير الذي يهدد مستقبل البشرية كلها.

- قرار أم سر؟!

- إنه مفاجأة مذهلة.

- إذن هيّا أفصح ولا تخف.

- أنا لا أخاف ولا يهمني رضوان أي مخلوق على وجه الأرض عني، بقدر ما يهمني رضوان نفسي وإحساسها بالصدق.. بالحقيقة.. بالفضاء.. بالجفاء.. وبأشياء كثيرة أراها حينًا تضيع وأراها حينًا آخر تتوحش فتهاجمني حتى الافتراس.

- هذا تهريج.

- هذا ما أريده.. أنا حر.

- بل حمار.

- قلت لك من قبل إنني أفخر بذلك ولي كل الفخر أنني لست إنسانًا.

- ما علينا، ولكن هيا أخبرني عن هذا السر الخطير الذي كنت تود البوح به.

- إذن لقد قبلت الفكرة.

- أية فكرة؟!

- أن نتبادل الهيئات.

- يا لك من مجنون!

- صدقني إنها فكرة طريفة أن تشاهد حمارًا يحتسي القهوة جالسًا إلى مكتبه وفي فمه سيجار فاخر، تداعب يمناه أحرف الآلة الكاتبة.

- ستقول الكثير ولن تفعل سوى القليل.

- أنا لا أريد سوى الحوار، بالحوار يمكن أن أعبر عن كل ما أراه.. ما أراه بعيني وما أراه بيدي أو بإحساسي أو بأذني.

- ماذا تقصد بأن تراه بيدك؟

- للأشياء منظورها الخاص بها، وعلى الرغم من وحدة الشيء إلا أننا نراه مختلفًا تمامًا من كل زاوية.. ورؤية العين غير رؤية اللمس غير رؤية السمع.. غير رؤية الرائحة.

كما أن رؤية كل مخلوق تختلف عن رؤية مثيله من المخلوقات الأخرى المشابهة له بل والمطابقة أيضًا.

- احذر يا عزيزي فالإنسان ليس إلاهًا.

- ماذا تقصد؟!

- أنا أحذرك فقط.. فأنت حديث العهد بالإنسانية.

- وأنا أحذرك أيضًا من خطورة التجربة.

- أتراني قد وافقت على فكرتك؟

- ستوافق.

- لما كل هذه الثقة؟

- أنتم معشر البشر تعشقون التجريب.. تعشقون الإثارة.. تعشقون كل ما هو جديد.

- إذن فلتخبرني عن هذا السر الخطير الذي يهدد مستقبل البشرية كلها.

❊ ❊ ❊

وقفت زوجتي أمامي لبرهة وجعلت تتطلع إليّ في صمت ثم جلست على حافة المكتب وهي تأرجح قدميها العاريتين في دلال.

- الساعة الثانية صباحًا ولا زلت تكتب!!!

كانت ترتدي قميص نوم حريري شفاف.

- أنت تجلسين فوق أوراقي!!

هبت واقفة، استدارت ثم طوقت عنقي بعد أن مالت عليّ بصدرها الدافئ واحتوتني برائحة عطرها النفاذ.

- حبيبتي.. لا بد أن أنتهي من...

طبعت قبلة رقيقة على شفتي، همست:

- غدًا حفل خطبة شقيقتك.

- أه... تريدين فستانًا جديدًا للسهرة.

- زوجة المفكر العظيم لا بد أن ترتدي ما يناسب مكانة زوجها.

ضحكت ثم صحت بها في مرارة:

- أول مرة تعترفين بأهمية الفكر، بل وبعظمة زوجك!!

- ألست كاتبًا شهيرًا ومفكرًا كبيرًا؟!

- الفكر لا يأتي بالمال... مضى على زواجنا حتى الآن ثلاثة أشهر ولكنك لم تستوعبي ذلك قط!!

قالت في سخرية: وبما يأتي الفكر؟! يأتي بالباذنجان؟!

- ولا حتى بالباذنجان.. إنه لا يأتي إلا بالقلق.

تغيرت ملامح وجه زوجتي، أدركت أن كل محاولاتها للحصول على مال لشراء فستان السهرة قد باءت بالفشل.. أمسكت بأوراقي، همست بعد أن قرأت بعض الكلمات:

- حمار!!!

تحولت كل ملامح وجهها إلى الدهشة التي سرعان ما تبدلت إلى ابتسامة كبيرة ما لبث أن استحالت إلى ضحك هستيري متواصل.

- تغادر فراش زوجتك لأجل حمار!!

نظرت إليها في غضب.. تدفق الدم بغزارة إلى وجهي الذي اشتعل احمرارًا ثم صحت بها والشرر يتطاير من عيني:

- اذهبي إلى المطبخ وأعدّي لي فنجان قهوة.

تراجعت زوجتي مفزوعة من تحولي هذا المفاجئ.. دفعت باب الحجرة خلفها وهي تردد:

- لن أعدّ لك أي شيء، بل سأذهب إلى سريري، أنا لست بخادمة لك.

منظرها وهي تفر كالقطة المذعورة، كلماتها الغاضبة، طفولية رد فعلها، كل هذا جعلني أضحك، ولكنني تعمدت إغاظتها فصحت من خلف الباب:

- كلكن لم تخلقن إلا لخدمة الرجال.. إعداد الطعام وغسيل الملابس.. ورعاية الأبناء.. وفي آخر الليل تقمن بدوركن التاريخي في تدفئة الأسرة.

صاحت في غضب:

- أتحسب نفسك شهريار؟ لا تنس أنك متزوج من طبيبة تحمل مؤهلاً أعلى من مؤهلك هذا المتواضع.

- معك حق.. بل كل الحق، أنا درست أربع سنوات بينما أنت درست سبع سنوات، ولكنك حتى الآن لا تعرفين كيف تعامل المرأة الرجل.

ألم تحضري يومها إلى الكلية؟!

تساءلت زوجتي في براءة: أي يوم؟!

- يوم درس تعليم الزوجة كيف تتعامل مع زوجها.

صاحت: أنت تثير غضبي.

ثم أردفت بعد برهة وهي تقتحم الغرفة ثانيةً:

- بل تعلمنا في كلية الطب كيف نعامل الحمير، أظنك تحتاج إلى معونتي؟!

ثم ألقت لي بورقة كبيرة، رسمت بها حمارًا ضخمًا وفي مواجهته رجل يحمل قلمًا كبيرًا.

أمسكت بعلبة الدبابيس ثم قذفتها بها وأنا أصيح:

- دعيني إذن مع حماري واغربي عن وجهي.

إلا أنها أغلقت الباب بسرعة وفرت هاربة وهي تردد.

- يا لحظي التعس، لقد تزوجت من رجل مجنون يحبس نفسه في هذا الوقت المتأخر ليجالس حمارًا وهميًا!!

❊ ❊ ❊

أنا الآن أريد أن أتخلص من كل شيء.. من كل الآلام.. من كل القيود.. من أشياء كثيرة جاثمة فعلاً على صدري، وربما أفعل الآن على الورق فعلتي التي هي في نظر الكثيرين مجرد كلمات منثورة بغباء على ورق أبيض لا معنى له...

لا.. لست لأني حمارٌ؛ فأنتم تصفقون لنجيب محفوظ ويوسف إدريس وتشيكوف وسارتر وألبير كامي وغيرهم من الكتاب والأدباء والشعراء على الرغم من أنهم لم يفعلوا شيئًا على الورق سوى مثلما يفعلون في بيت الراحة، وأحسنهم هو من تكون فعلته رائعة!!!

- أيها الأحمق لقد نفد صبري.

- آه.. لقد عدت ثانيةً إلى مقاطعتي، يبدو أن زوجتك الجميلة قد أثارت حفيظتك ضدي.

- جميلة.. قبيحة، لا شأن لك بها.

- لا تغضب.. إنني لا أغازلها، أنا أذكر فقط الحقيقة، إنها امرأة فاتنة.

- أعتقد أن رأيك فيها كحمار لن يسعدها...

إنك حتى هذا الوقت المتأخر، لم تذكر لي بعد السر الخطير، كما أنك لم تبدأ حتى في روي حكايتك..

ألا يستطيع أحد من الحيوانات أن يخبرنا عن السر سواك؟!

- يا عزيزي الإنسان، كل الحيوانات ذاقت وشربت من نفس الكأس، ولكنني تجرعت الكأس كله، أما عن كلمة غبي هذه فهي مربط الفرس، فأنا بلا غرور أذكى المخلوقات.

- كيف.. وأنت لا تستعمل عقلك؟!

- ولكنني أستعمل عقل الإنسان، فأنا أنفذ جميع أوامره بالحرف الواحد وبلا أدنى تفكير.

- ولماذا لا تستعمل عقلك أنت؟!

- في هذه الحالة ستتهمني بالتمرد، كما أن الإنسان بلا شك يملك عقلاً جبارًا.

- إذن فأنت تعترف بعظمة الإنسان.

- يبدو أنك لم تفهمني جيدًا.. إن تنفيذي لأوامر الإنسان الشكلية هو في حقيقة الأمر استعمال للعقل الآدمي وراحة لعقلي المهموم بأمور أخرى لا يمكنكم حتى التفكير فيها، بل إنكم توجهون تهمة الغباء إلى الحمار في حالة إذا كان الذي يوجهه غبي.

- وإذا كان الذي يوجهه ذكيًا؟!

- قلتم يا له من إنسان ذكي، ونسيتم الحمار أو تناسيتموه!!

وبما أن معظم الآدميين يتهموننا بالغباء، إذن فمعظم من يقودون الحمير أغبياء.

- تقصد أن معظم البشر أغبياء، يا لك من متطاول!

- أنا لم أقل ذلك ولكنك أنت الذي قلت.

- ماذا تريد إذن؟

- أنا لا أريد شيئًا، أنت الذي دائمًا تريد، فهل سألت نفسك مرة ماذا تريد؟ ولأجل من تريد؟!

- أنا أريد الحياة.

- كلنا نريد الحياة... ولكنكم صنعتم الموت.. صنعتم المرض.. الحروب.. ولم تصنعوا أبدًا الحياة.

- إذن قل لي أنت أيها الحمار، ماذا تعني الحياة بالنسبة لك؟!

- لا تعني سوى شربة ماء وكسرة خبز.

- إذن فأنت تحيا من أجل أن تأكل، لا تأكل من أجل أن تحيا.

- الاثنان معًا، فنحن نأكل لنحيا، ونحيا لنأكل.

- وماذا عن بقية متع الحياة؟!

- صدّقني ستملها جميعًا.. إن آجلاً أو عاجلاً، وسيبقى فقط الخبز وشربة الماء!!!

وصمت الحمار لبرهة ثم أردف:

- إنكم بعلومكم ومخترعاتكم المذهلة، استطعتم فقط أن تزيلوا الأشجار والزواحف والحيوانات لتستبدلوها بأبنية ومصانع ومزارع، وقد هيأت لكم أنفسكم أنكم قد تخلصتم من كل ما تبقى من عصور الوحشية، بينما أنتم لم تفعلوا سوى أن أنشأتم غابات أخرى من نوع جديد كنتم أنتم سباعها الضارية.

- وكلمة الحق.

- كلمة الحق عندكم هي كلمة القوة.

- أيها الحمار لم يعد أمامك من وقت سوى أن تبدأ في السرد.

❊ ❊ ❊

ولدت في حظيرة ظننت أول الأمر أنها رائعة!!!
أمي من أقوى الأنواع وأعرقها، فهي حصن الأمان الوحيد الذي ظللت متشبثًا به لا أفارقه لمدة طويلة من الزمان.
ابن خالتي البغل.. أبوه جواد عربي أصيل وأمه هي خالتي، حمارة مسكينة. وقد كان سيدي يناصبه العداء كثيرًا، فعلى ما يبدو لي أنه جاء رغمًا عنه. وليس سيدي فقط الذي ناصبه العداء، وإنما أبوه أيضًا العريق الأصل يكاد يمقته، بل ويعتبره وصمة عار في تاريخ عائلته الأصيلة، ولكن الغريب في الأمر أن ابن خالتي البغل لم تنكسر شوكته أبدًا رغم كل ما يحاصره من مظاهر البغض والعداء، ربما هذا راجعًا إلى ما ورثه عن أقاربه الحمير من صبر وجلد وأيضًا عناد، ولكن هذا لا يقلل أبدًا من حدة المعاناة التي مر بها طيلة حياته والتي كانت ولا زالت عالقة في ذهني حتى الآن.
في المرة الأولى التي رأيت فيها السماء أدركت مدى روعتها.. كانت مفاجأة شديدة بالنسبة لي!! وخاصة أن دنياي لم تكن تتجاوز جدران الحظيرة التي سرعان ما أدركت مدى حقارتها!!
وما فتئت أخرج من الحظيرة ولكن للحظات قصار، لا أتجاوز فيها سوى عدة أمتار.

ورغم إعجابي الشديد بالعالم الخارجي، إلا أن خوفي منه كان أشد!!

لمحتني أمي وأنا أتطلع إلى ذلك السور الكبير الذي يحيط بالحظيرة من جوانبها الأربعة فهمست لي:

- لا تحاول الخروج مرة أخرى وإلا تعرضت لعقاب شديد من سيدك.

ولكنني تساءلت في دهشة: ومن سيدي هذا؟!

إلا أنها صاحت بي في ذعر: ألا تعرف من هو سيدك؟!

ثم عاجلتني برفسة قوية في معدتي.. وكثيرًا ما كنت أعاقَب وأضرَب، ولكنني لم أتوقف قط عن محاولاتي المستميتة للوصول إلى العالم الخارجي..

❊ ❊ ❊

- الحريق!!

- الحريق!!

- الحريق في صدري.. في صدرك.. في صدورنا جميعًا.

- من أنت؟! ومن هم؟! بل ومن أنا؟!

- أرجوك لا تسألني ثانية من أنت ومن هم ومن نحن.. ليس مهمًا أن تعرف.. صدقني ليس مهمًا أن تعرف وليس بذي بال أن أكون أو لا أكون.. أن أكون حمارًا أو تكون أنت إنسانًا.. فنحن هكذا لا نعرف ولا ندري، فقط كانت نقطة البداية مفاجأة سارة لنا جميعًا.. نعم

جميعًا، وأعني جميع المخلوقات حتى الإنسان.. ذلك المخلوق الذي يدعي الحكمة وهو آخر من يتصف بها!!

- وهل تحسب نفسك حكيمَ الكون؟!

- لا يستطيع أحد سواكم أن يدّعي الحكمة.. ولكنني على الأقل توصلت إلى المعنى الحقيقي للحرية.. الحرية التي لم ولن تصلوا إليها أبدًا.

- أنت بهيئتك تلك وبعقلك هذا تستطيع أن تصل إلى المعنى الحقيقي للحرية؟!!.. عفوًا يا صديقي.. أعتقد أنك تكذب بل إنك أنت أكذوبة كبيرة.. مجرد فكرة خيالية تحتل مساحة ضئيلة في عقل المؤلف.

- إذا قلت لك غير ذلك أكون بالفعل كاذبًا كبيرًا.. هذه حقيقة لا مناص منها، ولكنكم أنتم من علمنا الكذب، وعلى الرغم من محاولاتي للوصول إلى الصدق إلا أنني لا بد أن أكذب!!

وهذا الاعتراف مني بالكذب لا يعرفه حتى عظماؤكم من الكتاب والعلماء والمفكرين.. لا يعرفه حتى زعماؤكم وقادتكم الذين من المفترض أن يكونوا أصدقكم وأطهركم وأنفعكم لبعضكم البعض.

وفي النهاية أليس الخيال هو جزء من هذا الواقع؟! إنه مجرد سؤال أطرحه ولا أنتظر إجابته!!!

وليس مهمًا ما أقول.. فأنا أقول وأنتم تقولون الكثير.. الكثير جدًا بينما لا تفعلون سوى القليل جدًا.

- نحن أسيادكم... أسياد الكون كله.

- إذا كنت تحسب أنكم قد ملكتم هذه الدنيا فأنتم ملوك المادة.. ملوك الغابة الجديدة.. لقد أزلتم الغابة القديمة وما بها من الأشجار والزواحف والحيوانات واستبدلتموها بأبنية ومصانع ومزارع، معتقدين أنكم قد تخلصتم من كل ما تبقى من عصور الوحشية، وفي حقيقة الأمر أنتم لم تفعلوا سوى أن أنشأتم غابات خرسانية أخرى من نوع جديد.. غابات جديدة صرتم أنتم سباعها الضارية.

- والعدل!!

وكلمة الحق!!

- العدل ضائع بينكم، وكلمة الحق عندكم هي كلمة القوة.

❊ ❊ ❊

مع تباشير الصباح وظهور قرص الشمس، كانت زوجتي تداعب بأصابعها خصلات شعري وهي تهمس:

- لماذا لم تشرب فنجان قهوتك؟!

نظرت إليها في دهشة، أشارت إلى الفنجان الموضوع فوق المكتب والممتلئ حتى حافته.

يبدو أنها قد أعدت لي قهوتي المفضلة وأنا منهمك في عملي إلى الحد الذي لم أشعر فيه بدخولها عليّ ووضعها للفنجان أمامي، حتى أنني لم أره إلا في هذه اللحظة.

رفعت الفنجان من أمامي ووضعت بدلاً منه كوب لبن دافئ وبعضًا من العسل والقشدة وشطائر الخبز.

همست في ودٍّ بعد أن جلست كطفلة صغيرة فوق ساقي:

شحب وجهك واحمرت عيناك.. لا بد أن تأخذ قسطًا من الراحة.

ولكنني نظرت إليها في هدوء ثم قلت:

- أين طبق الفول؟!!

سحبت زوجتي نفسها مني بعنف، لكزتني بقوة في صدري.

- الفول لا يجلب سوى الغباء.. أي مفكر هذا الذي لا يأكل سوى الفول.

قلت وأنا أقاوم الضحك:

- كل المفكرين.. بل كل العظماء يأكلون الفول.

❊ ❊ ❊

أول مرة شاهدت فيها الإنسان جعلت أتطلع إليه طويلاً، وطفق هو يقترب مني محاولاً أن يربت على رأسي، ولكنني وعلى حين غرة اندفعت خائفًا إلى الداخل، إلا أنه بعد مرور فترة زمنية قصيرة نشأت بيننا علاقة ود من ناحيتي أنا كانت حميمة، ولاسيما أنه صار يأخذني معه في كل مشاويره، وتلك كانت فسحتي الوحيدة التي تعرفت من خلالها على عالم الإنسان بكل ما يحمله من ظلم ونذالة وبغض.

ورأيت كيف يأكل الواحد منكم لحم أخيه حيًا وميتًا.

- وأنتم ألستم تأكلون لحوم بعضكم بعضًا؟

- إذا كنا نفعل ذلك فبغرض أن نبقى على قيد الحياة، فنحن لا نقتل إلا في حالة الجوع، ولا يمكن لأخ عندنا أن يقتل أخاه.

أما أنتم فلا تشبعون أبدًا... أنتم دائمًا في حالة جوع شره عنيف، هل سمعت يا صديقي يومًا عن حمار منافق يقابل الناس بالوجه الحسن، وهو في دخيلة نفسه يكن لهم البغض والكراهية؟!

هل سمعت عن حمار نذل؟!

ولكن كم منكم نذل وكاذب ومنافق؟! إن ما تفعلونه تقشعر له أبداننا وترتعد له فرائصنا.

- ماذا فعل لكم الإنسان حتى تقولوا عنه ذلك؟!

- بل قل ماذا فعل بنا؟!

إنني لا أعرف أين أمي أو أبي، لقد باعهما صديقي الإنسان على الرغم من طول مدة خدمتهما له، باعهما بعد أن شعر بدنو أجلهما وضعف قدراتهما على التحمل وانخفاض معدل أدائهما، ولم يرع شيخوختهما ولم يلتمس لهما الرحمة بعد كل ما قدماه له من خدمات على مدار عمر طويل.. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إنه قرر أن يذبحني.

- ولكننا عادة لا نذبح الحمير!!

- أحيانًا كنت ألتمس لصاحبي العذر.. وكيف لا ألتمسه له والبشرية كلها لم تدرك حكمة خلقنا بهذه الكيفية التي تمكننا من تحمل قسوتكم.

- لقد أثرت انتباهي لمعرفة سر اتخاذ صاحبك لقرار ذبحك.

- رويدك أيها المخلوق العجول، لقد اكتشف صاحبي ذات يوم وهو يحثني على الإسراع للعودة إلى البيت بعد يوم عمل شاق أني أعدو بسرعة فائقة.. سرعة تتجاوز كل حدود المعقول، إلى الحد الذي جعله يقرر مرة في لحظة جنون – وما أكثرها عندكم – أن يدخل بي في أكبر سباق للخيل.

- تقصد للحمير!!

- بل سباق الخيول!

- عفوًا يا صديقي، ولكن ثمة اختلاف كبير بين الحمار والحصان.

- يا لك من أحمق! تهتم بالشكليات مثلك مثل جميع البشر.. أنتم تعشقون الخيل لمظهرها الدال على الشموخ والعزة، وتحتقرون الحمير وهي في داخلها أكثر شموخًا وعزة، ثم إن الخيل والبغال والحمير ما هي إلا مخلوقات من أصل واحد.

- ولكن كيف نجح سيدك في إلحاقك بهذا السباق العالمي؟!

- لا تسألني عن هذا وأنت أدرى مني بكل وسائلكم الملتوية وغير الملتوية.

- من المؤكد أنك حصلت على المركز الأخير في هذا السباق، مما دفع صاحبك لاتخاذ قرار ذبحك، وخاصة بعد خذلانك له وجعله حتمًا أضحوكة للجميع.

- بالعكس.. لقد حققت المركز الأول وصرت بين عشية وضحاها أعجوبة الجميع.

- لقد حيرتني كثيرًا!!

أرجوك قل لي لماذا يتخذ هذا القرار، وقد صرت الدجاجة التي تبيض له ذهبًا؟!

- المشكلة في علاقة الحب التي نشأت بيني وبين زميلتي في الحظيرة.

- وما المشكلة في ذلك؟!

حمار يحب حمارة!!

- زميلتي هذه ليست إلا فرسة جميلة، وقد بادلتني حبًا صادقًا منذ اللحظة الأولى التي التقت فيها أعيننا.. هذه الفرسة اشتراها صاحبي بجزء من مال مكاسبي في السباقات العديدة التي فزت بها.

- حمار ويحب فرسة، يبدو أنك لم تتعلم الدرس من ابن خالتك البغل.

- بالفعل لم أتعلم دروسكم البغيضة ولن أتعلمها أبدًا، هل تودون أن تصنعوا الطبقية أيضًا بين باقي المخلوقات؟!

- وكيف اكتشف صاحبك تلك العلاقة بينكما؟!

- عندما علم أن فرسته المفضلة حامل، ثارت ثورته وجن جنونه وأخذ يهوي بعصاه على أنحاء متفرقة من جسدي وهو يصيح بي:

- اشتراكك في سبق الخيل جعلك تحسب نفسك واحدًا منهم.

تحملت كل ضرباته الموجعة ولم أبدِ حتى أي تذمر، إلا أنه ما لبث أن بدأ يهوي بعصاه على بطن فرستي الجميلة بكل ما يملك من قوة وهو يصيح بها: أيتها الفرسة الملعونة كيف تسلمين نفسك له؟!

كانت ضرباته لحبيبتي وحشية وكانت هي تتأوه.. تصرخ.. تحاول أن تنقذ جنينها من موت محقق، إلا أن وطأة الضربات كانت تزداد حتى جعلت الدماء تتدفق منها بغزارة، ولم أتحمل وحشية سيدي.

- ماذا فعلت؟!

- صحت صيحة انخلع لها قلب سيدي ذلك الآدمي المتوحش، ثم رفسته رفسة كادت تودي بحياته.. بعدها قرر تسليمي للجزار ليقوم بذبحي وبيع لحمي على أنه لحم جاموسي حلال.

- ويتخلى عن الدجاجة التي تبيض له ذهبًا؟!

- لقد نشأت بيننا عداوة بغيضة.. إن الإنسان حين يغضب.. حين يقرر أن يشفي غليله، لا يجد في الدنيا سعادة تفوق سعادة الانتقام، وعلى الرغم من عشق الإنسان للمادة إلا أن المال في هذه الحالة يتراجع ويحتل المرتبة الثانية بعد التشفي، بل إن الإنسان في بعض الأحيان يسخّر كل أمواله لتحقيق هذا الغرض.

- وهل قام فعلاً بذبحك؟!

❊ ❊ ❊

عندما حل موعد الغداء دلفت حماتي إلى حجرة مكتبي:

- ماذا حل بك؟! ألن تتناول طعام الغداء معنا؟!

- سأكمل بعض الأشياء ثم أخرج إليكما.

تطلعت حماتي العجوز إليّ في دهشة مشوبة بالقلق، ثم سألتني في جدية مبالغ فيها:

- هل أنت مريض؟! إن ملامح وجهك بها تغير غريب.

- لا عليك يا حماتي.. اذهبي أنت وتناولي طعام الغداء مع ابنتك.

خرجت حماتي من حجرة المكتب وهي تتمتم ببعض العبارات غير المفهومة دون أن تغلق الباب من خلفها، قالت لها زوجتي في ضيق:

- لم يخرج من هذه الحجرة منذ ليلة أمس.. لقد طلبت منه أن يبتاع لي فستانًا جديدًا يناسب حفل زفاف شقيقته إلا أنه رفض.. سأضطر إلى أن أرتدي أحد فساتيني القديمة.

وقالت حماتي في غضب:

- أنا لن أتناول طعام الغداء عندكما، سأعود إلى بيتي، كيف يدعوني للغداء ولا يجلس لتناوله معي، هذه منتهى قلة الذوق، إنها تصرفات لا تحدث إلا من حمار.

عندما علا صوتها واحتدمت كلماتها، نهضت بسرعة ثم أغلقت باب الحجرة وعدت ثانية إلى مكتبي.

❊ ❊ ❊

- أيها الحمار.. قل لي.. هل تم ذبحك بالفعل؟!

- ما حدث لي بعد ذلك غير مسموح لي بروايته لك، ولكن ما يهمني إخبارك به هو ذلك القرار الذي تم اتخاذه بشأنكم.

- أي قرار؟!

- قرار إبادتكم من على وجه الأرض.

- هل جننت؟!

ماذا تقول؟! لقد خُلِقنا لنحكم هذه الأرض، وكل ما هو موجود عليها مُسخّر لخدمتنا نحن البشر.

- مسخّر لسعادتكم!! التي لم تستطيعوا يومًا أن تحققوها، بل إنكم لم تحققوا حتى الهدف من وجودكم على الأرض، لقد حملتم الأمانة عن جهل ولم توفّوها حقها.

- هل تستطيع أن تخبرني عن هوية متخذ قرار إبادتنا؟!

- كل المخلوقات التي تعرفونها والتي لا تعرفونها، التي ترونها والتي لا ترونها.. التي تعترفون بوجودها والتي لا تعترفون.

وصمت الحمار برهة قصيرة ثم أردف:

- أيها الإنسان لقد صرت خطرًا عظيمًا يهدد الكون كله بالدمار.

- إذا كان الأمر بهذه الخطورة، فما جدوى إخبارك لي الآن بهذا القرار المجنون؟!

- إنني ومجموعة من إخواني قررنا المحافظة على نوعكم وعدم إبادتكم بالكامل؛ لأن في هذا أيضًا خطر يهدد ويخل بالتوازن العام، فنحن لا نتخيل الكون بدون وجود ذلك المخلوق الغريب المسمى بالإنسان ولكن...

- ولكن ماذا؟!

- لقد واجهنا رفضًا عنيفًا من باقي المخلوقات.. لقد كان الجميع مصرّين على إبادتكم إبادة كاملة كأن لم تكونوا أصلاً، مستندين إلى تلك الحالة من التناغم والتكامل التي كان عليها الكون قبل ظهوركم.

- إن كلامك هذا مجرد هذر ولغو فارغ، كيف يمكنكم إبادتنا ونحن نملك كل أسلحة الدمار الشامل.

- تلك هي المشكلة الكبرى.. كفاك غرورًا، ألا زلت تتلبسك روح الكبر والفخر وأنت واقع في كارثة حقيقية؟! ألا تعلم ماذا يعني أن تتحد كل قوى الطبيعة المادية وغير المادية لتقف في وجهك؟! ألا تدرك خطورة هذا الأمر؟!

- أيها الحمار ماذا تريد مني؟!

- قلت لك إنني وبعض إخواني قررنا عدم إعدامكم، وذلك على أن يتم حبسكم في أقفاص محكمة الغلق، كل فرد منكم يوضع في قفص يناسب حجمه.

- ماذا تقول؟!

تضعوننا نحن في أقفاص؟!

نحن؟!

يبدو أن الأمور كلها قد قلبت رأسًا على عقب!!!

- سنبقي فقط على بعض صفوتكم، أولئك فقط هم الذين سيتم تركهم أحرارًا.

- الأمر يبدو غاية في الجنون!!

- بل هو عين العقل... وإنني الآن أطلب منك أن تستخدم عقلك الجهنمي لمساعدتنا في تنفيذ مخططنا.

- مستحيل أن أقف معكم ضد بني جنسي.

- إذا لم تساعدنا سيتم إبادتكم بالكامل.

- ولكن كيف سيتم التزاوج بيننا؟!

- أهذا فقط هو كل ما يهمك؟!

فلتعلم إذن أنه لن يكون هناك أي نوع من أنواع التزاوج بينكم.

- يا لها من كارثة، إن في هذا هلاك مؤكد للبشرية.

- لا تقلق.. سيتم الحفاظ على نوعكم بالاستنساخ لأولئك الصفوة منكم.

- ولكن لماذا تحرموننا من أحد أهم حقوقنا الأساسية؟!

- على الأقل سنضمن عدم ظهور أي أجيال تحمل صفات جديدة.. فنحن لم نعد نحتمل منكم أي مفاجآت مرعبة، وعلى كل حال فأولئك الصفوة الذين سيتم إختيارهم منكم هم الذين سيقررون بعد ذلك ماذا يتم فعله معكم، وكيف ستسير الأمور بينكم، وسننسحب جميعًا تاركين الأمر لهم، بل أمر العالم كله، على أن يكون لنا بعض الإشراف الخفي بين الحين والآخر.

- عزيزي الحمار.. ماذا تريد مني تحديدًا؟!

- إن شرط جموع المخلوقات للإبقاء على عدد محدود منكم هو أن تقوموا أنتم بأنفسكم بإزالة تلك الحدود الوهمية التي صنعتموها وحاصرتم بها أنفسكم كدويلات كبيرة ذات كيانات صغيرة، بل وهمية!

عليكم أن تجتمعوا معًا بلا أي حدود كبني جنس واحد، وتختارون لنا بعد أن تتفقوا على معايير الاختيار.

- تعني أن نقوم باختيار الصفوة من العلماء والأدباء والمفكرين؟

- صفوتكم الذين تعتزون بهم وتودون الحفاظ عليهم.
- ولكن ما هو العدد المسموح لنا به؟!
- الأمر راجع لكم.. أنتم الذين ستحددون العدد أيضًا.
- المسألة غاية في الصعوبة.
- أية مسألة؟ أن تصبحوا كتلة بشرية واحدة بلا أية فواصل أو حدود؟!
أم أن يتم اتفاقكم معًا لأول مرة في التاريخ على تحقيق هدف واحد ألا وهو إنقاذ جنسكم من الفناء؟!
أم أن الصعوبة في عملية الاختيار نفسها وما سوف يشوب ذلك من مشاكل وصراعات عرقية ودينية واجتماعية وثقافية؟!
- وإذا لم ننجح في تحقيق ذلك؟!
- سيتم إبادتكم بالكامل؟!
- تبيدوننا بأيديكم أنتم، وقد كنتم يومًا إخوانًا لنا؟!
ألا تتذكرون لنا أي شيء قد قدمناه لكم أو للكون كله؟
- الآن صرنا إخوانًا لكم؟!
يا صديقي دعني أقول لك سرًا آخر، في حال فشلكم في عملية الاختيار أنتم بأيديكم الذين ستبيدون أنفسكم، ولن نلوث أبدًا أيدينا الطاهرة بدمائكم.
- ما هو مقدار الوقت الذي تمنحونه لنا كمهلة لتحقيق ذلك؟
- في تصورك أنت كم من السنوات تكفي لتحقيق هذا الاختيار؟
- عشر سنوات.

- بل قد تكون المئات أو الآلاف أو حتى عشرات الآلاف من السنين، ونحن سوف نمنحكم الفرصة لتحقيق هذا الغرض.

- وفي هذه الفترة ماذا تفعلون؟!

- سنبكي.. سنبكيكم ونبكي العالم كله وننتظر!!

❊ ❊ ❊

كان صوت زوجتي في الخارج ينبهني بحلول موعد حفل خطبة شقيقتي.

- هل ستتركني أذهب وحدي؟!

نهضت متثاقلاً.. وبعد أن أخذت دشًا دافئًا ارتديت ملابسي وأنا أفكر في كل كلمة من كلمات الحمار.. واختلط في رأسي كل شيء.. الحقيقة.. الوهم.. الخيال.

صاحت زوجتي:

- تأخيرك هذا سيفوّت علينا حضور مراسم الخطبة.

خرجت إلى زوجتي، نظرت إليّ في غضب ثم صاحت بي:

- هل ستذهب معي هكذا، ألن تقوم بتمشيط شعرك؟!

وعندما نظرت في المرآة ورأيت وجهي، كانت المفاجأة.

صرخت في فزع:

- ماذا حدث لوجهي؟!

ولكن زوجتي قالت في تعجب:

- وجهك كما هو، لم يتغير أبدًا منذ رأيتك أول مرة!!

عـدت ثانيـة إلى المـرآة وأنـا أتـرنح مـن الصـدمة، ولكنهـا جـذبتني إلى الخـارج لنلحق بالحفل.. وفي الحفل سلمت على أبي وأمي وإخـوتي.. قبّلـت العـروس والعـريس.. صـافحت كل المدعوين فـردًا فـردًا، ولـم ألحـظ في وجـوه أقـاربي أو أصـدقائي أو أي مـن حاضـري الحفـل أي دهشة أو تعجب.

كان الجميع ينظر إليّ بكل ودٍّ وترحاب، عدا حماتي التي كانت تنظر إليّ في دهشة مشوبة بالغضب.

أمسكت بأذنيّ الطويلتين وفركتهما بشدة، ثم جعلت أصيح بصوت سرعان ما استحال نهيقًا حادًا قويًا.

❊ ❊ ❊

بعد الحفلة ١

بعد أن ألقوا بالتراب فوق الجسد، وأحكموا غلق القبر... وقفت بينهم أتأمل حالهم.. بعضهم كان يبكي، والبعض الآخر يثرثر في حكايات الماضي. كانوا يقولون عني أشياء كثيرة جميلة، ويصفون أخلاقي بالحميدة، إلا ابن أخي سمير، طفل صغير كان ينظر إليهم في دهشة، ثم صاح بهم:

عمي لم يكن هكذا على الإطلاق.

صفعه أخي عبد الفتاح على وجهه حتى يصمت، إلا أنه لم يبكِ، ولم يتوقف عن الثرثرة حتى أنه صاح بهم:

أليس هو سليط اللسان، قليل الذوق؟ ألم تشتكوا جميعًا من جشعه وطمعه وسوء فعله؟

نظرت إلى ابن أخي وضحكت، فهو الآن قد فضحهم أمامي وأعلمني بكل ما كان يقال من خلفي.

توقفت أمامه تمامًا ونفخت في وجهه.

ارتعد سمير وصرخ بشدة.

قامت أمه إليه فزعة: ماذا أصابك يا سمير؟

قال أبوه:

هذا من سوء أدبه وكلامه السيء عن عمه.

جاءت جارتنا العجوز الخالة فريال تهرول إلى سمير، همست في أذنه ببضع كلمات، ثم قالت:

الولد اتمَسّ.

قال أخي عبد الفتاح:

- ما هذه الخرافات؟!

- ليست خرافات، إنه في بداية مرحلة المس.

- وماذا سيحدث له بعد ذلك؟

- ستتطور حالته، وربما يحادث الموتى.

صرخت أم سمير فزعة، أمسكت برقبة عبد الفتاح زوجها ثم قالت:

اطلب من أخيك أن يبتعد عن ابني، ألا يود أن يتركنا في حالنا حيًا أو ميتًا.

صاح ابني الأصغر بها وهو يبكي: ألا تستحين مما تقولينه؟!

وهمت زوجتي أن تشتبك معها بالأيدي، إلا أن بعض الحضور حالوا بينهما، كانت زوجتي تردد بصوت متحشرج: صحيح ست عديمة الأدب.

بينما قد التف حولها باقي أبنائي.

أصابت أخي حالة من الاضطراب والحيرة، ثم قال: هل أصابك لطف يا سميرة، أخي مات.

قرروا عدم إقامة عزاء وانصرفوا جميعهم إلى بيوتهم. بعد أن تطلعت قليلا إلى مجموعة المقابر التي يمتلئ بها المكان، شعرت بوحشة شديدة، كان المكان يدعو إلى الخوف والفزع... قبل أن أهم

بالمغادرة، اطمأننت على الجسد المُسجّى في التراب، وشرعت خارجًا، إلا أنه استوقفني رجل طويل يرتدي عباءة سوداء.

قال لي:

- إلى أين؟ ألن تحضر الحفلة؟!

- أية حفلة، وهل يقام هنا حفل؟!

_ طبعًا، كل ليلة، وأنت اليوم عريس الحفل.

حانت مني التفاتة إلى الخلف، وجدت العشرات من الذين يرتدون الملابس البيضاء وقد تجمهروا حولي مرحبين ومهللين.. حضنني بشدة صديقي محمود الذي توفي منذ عشر سنوات.

صحت به:

_ أنت كما أنت لم تتغير ملامحك!

_ هذا عادي يا صديقي، نحن هنا لا نهرم.

سألته: أين أبي؟

قال لي:

- إنه في مهمة، وسيأتي حالما يسمحون له بذلك.

_ من هم؟

_ لا تسأل.

_ ولكني أشتاق إليه كثيرًا.

_ لا تقلق.. سيأتي يومًا لمقابلتك، أو ستذهب أنت إليه.

فجأة انهمر المطر وعصفت الرياح، فاندفعوا جميعًا إلى داخل قبورهم ليحتموا بها، ولم يقف معي سوى محمود صديقي.

لمحت جارتنا العجوز وقد عادت ومعها سمير وأمه.
قالت له: هيا يا سمير افتح قبر عمك.
- ماذا ستفعلين يا خالة فريال؟
- لا تقلقي، لا بد من أخذ خصلة من شعر عمه، وأن يأخذها بيده هو، حتى أخلصه من هذا المس اللعين.
اندفع محمود إلى سمير وأمسك بأذنيه.
صاح سمير رعبًا.
أبعدت يد محمود عن أذنيه والتفتّ إلى سمير صائحًا به:
_ خذ أمك يا سمير والخالة العجوز وامضيا من هنا، وأنا حالما أفرغ سآتي إليكم.
سقط سمير على الأرض فزعًا حينما رأى وجهي وسمع صوتي.

❊ ❊ ❊

بعد الحفلة ٢

تحركت صوب الخارج، إلا أن محمود استوقفني قائلا:
- إلى أين؟!
- إلى الناس، هذا مكان موحش.
_ ولكنك الآن...
_ ولكني ماذا؟!
_ أقصد كائن مختلف.
_ تعني ميت.
_ أنا لا أقصد الإساءة، فأنا مثلك تمامًا.
وفجأة أقبل الرجل الطويل، صاحب المعطف الأسود، فاختفى على الفور صديقي محمود، قال الرجل بصوت عميق:
_ بعد مضي حياتك الطويلة كلها، بعد كل هذه السنوات، ولا زلت تتوق إلى الدنيا؟!!
- المتعة الحقيقية، في القرب من الناس.
- بل في القرب من صانعك.
- وصنيعته، والناس هم صنيعته.
- لم تتغير طريقة تفكيرك ولا حتى قيد أنملة.
- الناس آية من آياته ويكفي أنهم من روحه.
- لا تبصر سوى ما تصدقه، وتجادل وكأنك تمتلك الحقيقة، وحدك ولا أحد غيرك.
_ أنا أحترم الجميع.
_ ولكنك لا تعرف أن الحقيقة لها أكثر من وجه!!

_ ما يعنيني هو أنني كنت أتمتع بحب الجميع.
_ هذا شيء غير مؤكد.
_ كنت لأبي الأثير، كما كنت فتى أمي المدلل.
_ وإخوتك؟
_ غمروني دائمًا بعطفهم، وهم سندي في الحياة.
_ وأصدقاؤك؟
_ كنت أنا أليفهم المفضل.
_ وأبناؤك؟
_ هم عزوتي وفلذات كبدي.
_ وزوجتك؟
_ هي نور عيني على الأرض.
_ هكذا توهمت.
_ لقد منحوني سعادة القرب منهم.
_ الحقيقة أنك لم تكن الأثير لدى أبيك أو أمك، كنت طفلا بين كثرة، منهم من يكبرك أو يصغرك، حتى إخوانك كل واحد منهم لم تكن تمثل له أي شيء، بل إن من تحسبهم أصدقاء كانوا يتخذونك كوسيلة لملء الفراغ، ولا يتذكرك الآن من أبنائك أحد، فقد شغلهم أولادهم حتى عن أنفسهم، أما زوجتك فهي غارقة في مشاكلها العديدة مع زوجها الحالي.....
أشجار وورود ورياحين... وبحار من فضة، وأنهار من ذهب وقلوب بيضاء كطير من نور... أتترك كل هذا وتود أن تعود إليهم؟!
أتستبدل الأعلى بالأدنى؟
- تلك غايتي.

_ هكذا ستقلب القواعد رأسًا على عقب، أنت هنا في مكان وزمان أفضل من كل ما عداه.

- ولكني أحببتهم جميعًا بكل ما فيهم من مزايا أو عيوب، وما أراه هنا ليس إلا وهمًا.

- بل إن ما تراه الآن هو الحق، وكل ما سبق كان وهمًا.

- اشتقت كثيرًا إلى أحبائي.

- إنهم مجرد خدعة.. أكذوبة، والذين يرافقونك الآن على الأقل لا يخدعونك. _ أرجوك أعطني نفسي السابقة وحياتي حتى وإن كانت مجرد حلم قصير.

_ كيف ستعيش معهم الآن، بعد أن أدركت أن الخداع ليس إلا وسيلتهم الفضلى؟!

- أنا فقط أدرك حبهم وعطفهم، وأنت لا تنفك تسيء إليهم وتذكر أشياء لا يطيب لي سماعها أوتصديقها، أرجوك دعني أعود إلى بيتي وأصدقائي وأهلي!

_ ولكنك أنت الذي كنت تمنحهم وقتك وجهدك ومالك وحبك.

_ حبي لهم قطرة من مقدار حبهم لي.

_ أنت تحب الجميع ولا تستطيع سوى أن تفعل هذا.

_ ولماذا أكرههم؟

_ لأنهم جميعًا أساؤوا إليك، لم يقدروا حجم ما منحتهم من حب وسعادة، نحن هنا أولى بك، أما هناك فهي أرض ليست لك وأناس ليسوا منك.

❊ ❊ ❊

بيداء الخمر

هلمي بنا – يا فتاتي – نبحر معًا، بعيدًا عن بيداء الخمر، بيداء الغلمان والنوق الحمر، والليالي الحمر، وأغاوات الصنم.

لنبحر في هدوء، هدوء العاصفة قبل الهبوب، ولنسترجع معًا شريط الذكريات.

أفتاتي... انهضي ودعي عنك اللوم، دعي البكاء، دعي الخيل والبيداء؛ فما عاد يجدينا لا دمع ولا ندم.

آه.. آه يا فتاتي.

يا جميلة... يا صبية كفتنة في وجه الزمن.

لمَ أراك عاصبة الجبين؟!

أانطفأ سراجنا المنير؟!

أضاعت أحلامنا بين صخور ورمال؟!

أم تاهت أيامنا بنا وراحت بين دروب العدم؟!

❊ ❊ ❊

فرشاة للطلاء

ناولته فرشاة الدهان وأنا أموج بالغضب، بعد أن سقطت هي وعلبة الطلاء من بين يديه المرتعشتين على أرضية الفيلا.
وبينما كان هو قد تجمد خجلا فوق سلمه الخشبي المتهالك، كنت أنا أحاول أن أزيل الطلاء، الذي قد تناثر على حذائي الإيطالي الصنع، وبدلتي الباريسية الطراز.
كهل، ضامر الجسد، أشيب الشعر، رث الثياب ملوث بالعديد من الألوان والأصباغ، بيد أنهم أخبروني أنه يعول أسرة كبيرة، وطالما أنها مجرد مهمة لضبط لون أحد الحوائط، فهو أفضل من يمزج الألوان ويركّبها.
قبل أن يعتذر لي، صحت به في دهشة:
- علاء... أنت علاء؟!

❊ ❊ ❊

في عامي الأول في الجامعة، لم يتركني في حالي!! اتخذني مطية لاستعراض وسامته أمام بنات الكلية، كشاب عصري متفتح، وأنا الوارد توًا من عباءة أم كنت وحيدها المدلل.

في بدء تعارفي به لم أكن أفهم نواياه الاستعراضية الخبيثة، ولكن ضحكات الجميع من حولي وهمساتهم الثنائية جعلتني أدرك سوء مقصده.

حاولت كثيرًا أن أتحاشاه، إلا أنه كان دائمًا لي بالمرصاد، بإهاناته المستترة خلف دعابة أو إشاراته لجميع البنات من حوله، وكأنه يلفت نظرهن إليّ كمخلوق بدائي نادر الوجود.. وهو ببنيانه وطوله الفارع، وأناقته الشديدة وشعره الناعم الغزير المحلوق من الجانبين، حينا يبدو لي مثل ذكر الهدهد الضخم وحينا كطاووس ملون كبير.

أصابني الهم والكدر وصرت لا أدري ماذا أفعل معه، علاء..... هو الابن الحقيقي لهذه المدينة، وأنا رغم أني واحد من أبنائها، إلا أنني لم أكن أعرف بواطنها، فلا خبرة لي بشوارعها العميقة، أو دروبها الملتوية، ودهاليزها الغامضة.

حين التحقت بالجامعة شعرت كأن أبي قد قذف بي في أتون مستعر من لهب الأضواء والزحام.

طلب مني يومًا مجموعة من المذكرات الجامعية... ولأنني لا أتأخر عن مساعدة أحد كما علمتني أمي، سهرت الليل كله ما بين الكتابة والمراجعة، لمجموعة كبيرة من المحاضرات، حتى هيأتها ورتبتها، وأعددت منها نسخة بخط جميل ولغة سهلة واضحة، ولم أكن أعلم أن باكينام هي التي طلبتها منه.

باكينـام التي تبـدو دائمًـا متوهجـة مشـرقة، بقوامهـا الممشـوق، وملابسـها العصـرية المكشـوفة التي تزيـدها فتنـة وجمـالا، وهي محاطة دومًا بعدة فتيات وكأنهن وصيفاتها، ومجموعة من الذكور كأنهم حراسها. بدا لي وكأنه صديقها المقرب، كان لصيقًا بها ملبيًا لكل طلباتها، مسخرًا نفسه لكل إشارة أو إيماءة منها.

ولم أكن أدري أنني سأقف خاشعًا ذليلا بين يديها، وهي تقلب في الورق بينما هو قد بدأ في السخرية من ملابسي المتواضعة حتى امتلأت القاعة بضحكات الجميع..

وقتها تأكدت أن باكينام هي شريكته في تدبير هذه المكيدة، بعد أن أخبرها بأنه سيحضرني، ليلهوا بي.

وها هو يقدم لها فاصلا هزليا، عن البنطلون الطويل الواسع الذي أرتديه، وكذلك قميصي الكاروهات الملون، وحذائي المتهالك القديم.

سحب حقيبتي الصغيرة مني عنوة، ثم أخرج ما بها من سندوتشات البيض والجبنة، وجعل يوزعها عليهم، بينما تتعالى ضحكاتهم.. وهم يهمسون في سخرية: لقد أحضر معه حقيبة المدرسة القديمة.

وأنا واقف في مكاني، وقد تجمدت كل أعضائي.

كان العرق الغزير يتفصد من مسامي، ولا أدري ماذا أفعل.

تمنيت أن تبتلعني الأرض.

أو لعلها تميد، أو تغور بي في أعماقها السحيقة.

شعرت بإهانة بالغة، وأدركت حينها المعنى الحقيقي لكلمة كره، وأنا في حياتي من قبل، لم أمقت أحدًا.

لحظتها تحول ما بداخلي من مشاعر حنق وغضب تجاه علاء، إلى طاقة سلبية هائلة كادت تعصف بي.

حبست ألمي وكرهي في داخلي، وانطلقت هاربًا، لا ألوي على شيء، إلى أن وصلت إلى بيتنا ماشيًا على قدمي، حتى تشققت من طول المسافة التي لم أشعر بها.

وحين جاءت أمي إليّ وسألتني:

- ماذا ألم بك؟!

صحت بها:

- لماذا فعلتم بي هذا؟!

دفعتها بقوة بعيدًا عني، مزقت كل أوراقي وكتبي وألقيت بها من النافذة، هرع أبي إليّ على صرخات أمي.

صاح بي، بعد أن لكزني بقوة في ظهري:

- كليتك.. دراستك.

صرخت به:

- لا يهم...

التعليم، التفوق، الأخلاق والمبادئ....

كل هذا لا يهم ولا يساوي شيئًا.

- ومستقبلك!

- أي مستقبل هذا الذي تتحدث عنه؟!

❊ ❊ ❊

ثارت باكينام زوجتي ثورة عارمة، حين دخلت علينا فجأة ورأت منظر الأرضية وهي ملوثة بالدهانات والألوان.

حاولت أن أهدئ من روعها، وأن أذكرها أن هذا (النقاش) هو علاء زميل دراستنا القديم.

إلا أنها لم تعطني أية فرصة، وطفقت تكيل له كل عبارات السب والتجريح. نزل علاء من على سلمه الخشبي، وأقعى جالسًا على الأرض، حاول تهدئتها واستعطافها بكل الوسائل.

أخبرها وهو يتلعثم، والعرق الغزير يتفصد منه، أنه سيقوم بتنظيف المكان وإعادة كل شيء إلى أصله، حتى التحف التي تلوثت والآنية الكريستال سيقوم بإعادة تلميعها، وسيحضر مزيل بقع قوي لتنظيف الأثاث.

إلا أنها لم تعطه أية فرصة، وقامت بفتح الباب على مصراعيه وهي تصرخ في عصبية:

- بره...اخرج بره.

❊ ❊ ❊

الشيخ والطبال

الطبال.. محترف، ضامر الجسد، وجهه شاحب، وتحت عينيه سواد شديد، ملابسه حريرية، فاقع لونها، وشعره المصبوغ بصبغة سوداء يلمع دائمًا بالزيوت والكريمات، يُمضي الليل كله في الملاهي الليلية خلف المطربين والراقصات.

الشيخ... حافظ لكتاب الله، ذو لحية بيضاء طويلة، معمم، له وقار، وهيبة كبيرة، مسئول عن المسجد القريب من بيت الطبال.

الطبال... يطلب من الشيخ كثيرًا أن يدعو الله له، وهو يدفع ببعض النقود في صندوق تبرعات المسجد، بينما الشيخ ينظر إليه في ازدراء ويتمتم بعبارات غاضبة مبهمة، ثم يستعيذ بالله وكأنه رأى شيطانًا رجيمًا، وبعد أن ينصرف من أمامه لا يلبث أن يعلن للجميع أن هذه الحارة لن ينالها إلا غضب الله ولعناته، بسبب تركهم لهذا الفاسق، أسير الغواني والراقصات، وكيف أنهم يتركونه بينهم ولا يخشون على نساء الحارة المصونات منه.

سكان الحارة.... كانوا يؤكدون للشيخ أنهم حتمًا سيطردونه من حارتهم، إن لم يكن اليوم فحتمًا غدًا.

قبل أذان الفجر بقليل....

الشيخ.... يهبط من بيته متجهًا إلى المسجد.

الطبال.... يأتي محمر العينين، وهو يكاد يسقط مترنحًا في مشيته، ثم يصعد بصعوبة إلى أمه في الطابق الذي يعلوه ويتأكد من تناولها لطعامها، ثم يهبط إلى عياله يدثرهم، وهم نائمون، ويضع لكل واحد منهم مصروفه اللازم لقضاء يومه الدراسي التالي، ثم يتأكد من تناول زوجته القعيدة لدوائها، وهو يتحسس العلبة، في بؤس، ويدرك أنها أوشكت على النفاد، ويتجه إلى مطبخ المنزل فيقوم بإعداد طعام للأسرة كلها، يكفيهم اليوم التالي، حتى يكاد يغشى عليه من الإعياء، ثم ينام مع شروق أشعة الشمس الأولى.
الشيخ... بعد أن يؤم الناس في صلاة الفجر، يقوم بإحصاء أموال الزكاة والصدقات، وتبرعات أهل الخير، ثم ينهض متجهًا إلى بدروم سري في بيته، ليفحص الأسلحة والمعدات المخزنة فيه.

❊ ❊ ❊

تعريف بالكاتب

شريف محيي الدين:
عضو اتحاد كتاب مصر
وهيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
ونادي القصة بالقاهرة ونادي القصة السعودي

صدر له:
أحذية وكلمات، قصص قصيرة ١٩٩٥
طائر على صدر امرأة، رواية.
أصحاب الملامح الباهتة، رواية.
رجل الخوف، مسرحية.
الحب والوهم، مسرحية.
الدهليز (أصحاب الملامح الباهتة) مسرحية.
الملك، رواية.
أنا الملك، مسرحية.
خارج الحدود، رواية.
طريق النخيل، قصص قصيرة.
نجوم الإبداع السكندري، دراسات نقدية.
مريم، رواية ٢٠١٦

حصل على العديد من الجوائز منها:

جائزة نادي القصة، المركز الأول

ميدالية إتحاد كتاب مصر

جائزة الثقافة الجماهيرية، مركز أول

ميدالية هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

جائزة مجلة النصر، مركز أول

تم تنفيذ وإذاعة عدة أعمال درامية له في الإذاعة المصرية منها:

كلاب المدينة

الرجل والمصعد

تم تنفيذ وعرض عدة مسرحيات له في مصر منها:

أنا الملك

رجل الخوف

❊ ❊ ❊

الفهرس

إهداء ٥
مكان في الجنة ٧
قطعة صغيرة من الوطن ٨
أثواب سبعة ٩
حمراء ١٠
التماثيل ١٢
أبليس ١٣
صديقي ١٤
الطائر الجريح ١٧
كرسي فارغ ٢٠
امرأة عارية ٢٢
العجوز ٢٧
الفراعنة ٣١
هي وهي ٣٣
الفئران ٣٥
المتوحشة ٣٨
ليلى ٤١
القرين ٤٣
الناظر نور ٤٥
فرصة أخرى ٥٠
العباءة السوداء ٥٣

روح الأسطورة ٥٦
فنجان فارغ ٥٨
المنعطف ٥٩
عتاب ٦١
الوعاء ٦٢
العاري ٦٤
صاحب النظارة السوداء ٦٨
الخبز واللبن ٧١
رفيق ٧٦
الأمطار ٧٧
كوابيس ٧٩
قربان ٨١
الدعي ٨٢
الخنجر ٨٣
الأصل ٨٥
امرأة بلا ملح ٨٧
محمد رشيد ٩١
دعكم مني ومن ظنوني ٩٣
إلى متى تبكي الحمير ٩٤
بعد الحفلة ١ ..... ١٢١
بعد الحفلة ٢ ..... ١٢٥
بيداء الخمر ١٢٨
فرشاة للطلاء ١٢٩
الشيخ والطبال ١٣٤

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج . م . ع

www.Idafabooks.com